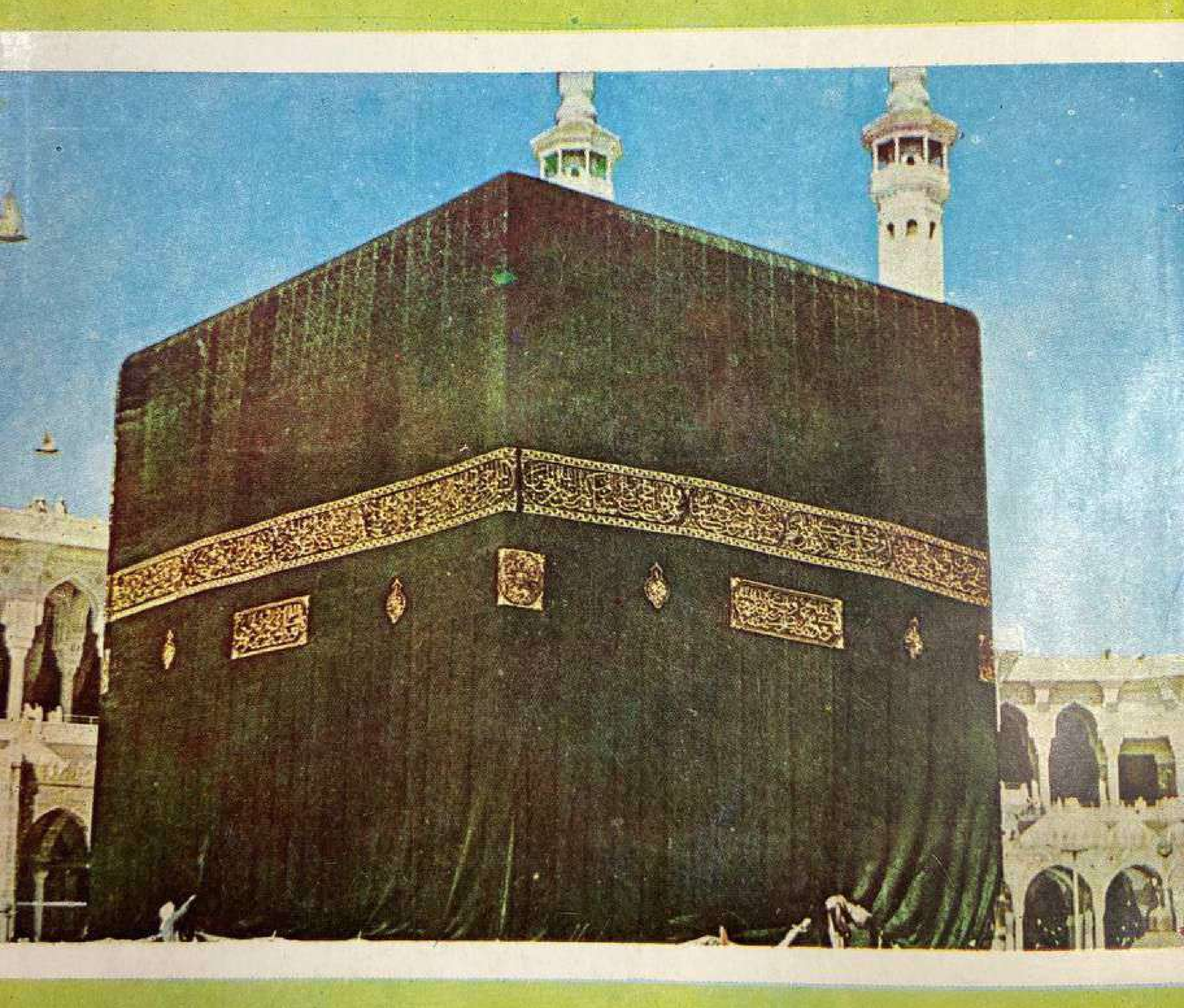
أحمد عبد الغفور عطّار

الكعبة والكسوة

منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم



من منشورات

وزارة الحج والأوقاف

المملكة العربية السعودية

الكعبة والكسوة

منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم

تأليف
أحمد عبد الغفور عطار

من منشورات
وزارة الحج والأوقاف
المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى

بيروت – ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م

الطبعة الثانية

بيروت – ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾

المقـدّمة

الكعبة المشرفـة بيت الله على ظهر هـذه الأرض ، وهو أول بيت وضعه الرب الكريم لعباده المؤمنين ، يحيطون به في طوافهم ليل نهار ، ويعبدون الله بين يديه ، حتى إذا أكرم الله البشرية برسوله محمد عليـه أفضل الصلاة والسلام وجعله خاتم رسله ، والدين الذي بعثه بـه خاتم الأديان حتى يكون بنو البشر إخوة تجمعهم وحـدة الدين ووحدة الاتجاه إلى قبلة واحدة هي هذه الكعبة .

ولا يمكن أن يكون الإنسان مؤمناً حتى يجعل الكعبة الغراء قبلته وإلا فقد الإيمان وخرج على الإسلام دين الانسانية .

ومنذ أن قامت الكعبة على وجه الأرض وهي موضع الإجلال والاحترام والتقديس من الناس ، ولم تفقد قط كل هذه المعاني في جميع عصورها حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن بعض آيات هذه المعاني كسوة الكعبة التي عني بها الناس حتى جاء الإسلام فكانت العناية أجل وأعظم ، وبدأ بكسوتها في عهد الإسلام رسوله الكـريم محمد عليه الصلاة والسلام فكساها خـير كسوة في تاريخ الكعبة ، وتأساه خلفاؤه الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم .

وكل من جاءوا بعدهم كان لهم في رسول الله وخلفائه أسوة حسنة ، فاهتموا بالكسوة أعظم اهتمام ، فكسوها من الداخل والخارج ، ثم تبع كسوة الكعبة كسوةُ المسجد النبوي ، فكان الخلفاء العباسيون وحكام مصر وخلفاء بني عثمان شديدي العناية بكسوة الروضة المطهرة وغيرها مما تجب كسوته من المسجد النبوي .

وتعرضت الكسوة كثيراً للسياسة واهواء الحكام والمنازعات مما أدى إلى انقطاعها لولا مبادرة أهل الخير من أهل مكة وحكامها ومن غيرهم إلى كسو الكعبة .

وقد أدركت في عهدي انقطاع الكسوة أربع مرات وهن :

الأولى – في سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) عندما كان الشريف الحسين ابن علي ملكاً على الحجاز ، فقد رجعت الباخرة التى كانت تحمل الكسوة إلى مصر بسبب خلاف سياسي ؛ وكساها الحسين رحمه الله .

الثانية – في سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) استولى الملك عبد العزيز آل سعود على الحجاز ، وكانت جدة – الميناء الوحيد – تحت حكم الشريف الملك علي بن الحسين الذي كان محاصراً فيها ، فأعد الملك عبد العزيز ميناء رابغ لاستقبال حجاج البحر والكسوة الشريفة ، ولكن مصر منعت الكسوة ، ولم تعلن ذلك ، فلما لم تصل في الموعد المحدد في أواخر ذي القعدة سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) أحرج الملك عبد العزيز ، ولكن الله أعانه فصنع كسوة الكعبة الخارجية والداخلية خلال أيام معدودات ، وألبسها الكعبة في الموعد .

وعادت مصر سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) إلى ارسال الكسوة ، وقد وصلت في موعدها .

الثالثة – في سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) منعت مصر ارسال الكسوة

لأسباب سياسية أيضاً ، فكساها الملك عبد العزيز ، واضطر إلى إنشاء مصنع للكسوة بمكة المكرمة سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) وأخذ يصنع الكسوة منذ تلك السنة حتى سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) لأن مصر تعهدت بإرسالها ورجت الملك عبد العزيز أن يعفو عما سلف ، فعفا ، وأغلق المصنع السعودي أبوابه .

الرابعة — في سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) كان حاكم مصر قد تنكر للمملكة العربية السعودية ، وحمل عليها حملات منكرة ، وأنكر فضلها ، ودبر مكيدة أراد منها تشويه سمعة المملكة واحراجها أمام العالم الإسلامي ، فوصلت الباخرة المصرية إلى جدة في أواخر شهر ذي القعدة ١٣٨٢ هـ وفيها الكسوة ، واختلقت خصومة من جانبها ، وعادت الباخرة بالكسوة والحجاج إلى مصر .

ولكن الله رد كيد الكائدين إلى نحورهم ، وكست المملكة السعودية الكعبة كسوة حسنة كانت ثمرة جهود مضنية ، لأن ما كان يصنع خلال شهور صنعته المملكة السعودية خلال أيام .

وقررت الحكومة السعودية أن تصنع هي نفسها الكسوة منذ تلك السنة وصممت العزم فأعادت فتح مصنع الكسوة الذي أنشأه الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٦ هـ وأغلق سنة ١٣٥٨ هـ .

ولما كانت وزارة الحج والأوقاف مسؤولة عن المسجد الحرام والكعبة المشرفة فقد وكل إليها أمر صنع الكسوة وادارة المصنع الذي اتخذ داراً إلى أجل حتى تنشىء المصنع الذي يراد انشاؤه .

وقد اختلف منذ سنة ١٣٨٤ هـ على وزارة الحج والأوقاف أربعة وزراء ، وكانت قبل ذلك إدارة تابعة لوزارة الداخلية ، فلما رأى الملك فيصل رحمه الله أن يجعل للحج والأوقاف وزارة اختار الأستاذ حسين

عرب وزيراً لها في شهر شوال سنة ١٣٨٢ هـ في الوزارة التي كان جلالته رئيسها .

والوزير الجديد هو الذي خاض معمعة حرب الكسوة التي عادت إلى مصر ، ولم يكن لديه غير أيام عشرة ، ووفقه الله فاستطاع خلالها تهيئة كسوة رائعة ارتدتها الكعبة المشرفة في يوم العاشر من ذي الحجة موعد الكسوة .

ووضع الأستاذ حسين عرب بإشراف الملك فيصل نفسه خطة إنشاء مصنع الكسوة الذي يعد إحياء للمصنع الذي أنشأه الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٦ هـ وأغلق سنة ١٣٥٨ هـ واختير له دار بحي جرول على قيد خطوات من مقر وزارة الحج والأوقاف في بيوت الشيخ عبد الله السليمان ، وذلك قبل انتقالها إلى الرياض وقبل انتقال وكالتيها إلى مواضع أخرى .

وجمع حسين عرب عمال الكسوة السابقين وفرغهم للعمل كما أعد عمالاً جدداً يتعلمون صناعتها ، وأحضر آلات النسيج والحياكة والتطريز اليدوية والميكانيكية ، وأخذ المصنع يعمل الكسوة ، واستقال عن الوزارة في سنة ١٣٨٣ هـ فأسندت إلى الأستاذ محمد عمر توفيق وزير المواصلات ليكون وزير الحج والأوقاف بالنيابة ، وعني مثل سلفه بالكسوة ومصنعها ، وأخذ مصنع مكة المكرمة يكسو الكعبة منذ سنة ١٣٨٣ هـ .

وفي سنة ١٣٩٣ هـ أسندت وزارة الحج والأوقاف إلى السيد حسن محمد كتبي ، وشغلته مشروعات الأستاذ حسين عرب ، ووضع هو ومحمد عمر توفيق بذور مشروعات كبيرة ، كما بدأ في تنفيذ بناء مصنع الكسوة في مدخل مكة من شمالها بأم الجود ليكون أول ما يشاهده وفود بيت الله الحرام قبيل دخولهم مكة .

ثم استقال السيد حسن كتبي ، وأسندت الوزارة في سنة ١٣٩٥ هـ

إلى الشيخ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع الذي كان يشغل قبلهـا منصب رئيس هيئة الرقابة والتحقيق بدرجة وزير .

ومن توفيق الله للشيخ عبد الوهاب ان البذور التي بذرها من سبقوه أخذت تظهر ، وتعهدها برعايته وعنايته حتى أصبحت أشجاراً باسقة تظلل مئات الألوف من الحجاج كل عام ، يستمتعون بثمرها وظلها .

ومن خير ما عني به الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع الكسوة الشريفة ومصنعها ، فجعله أحدث مصنع ، واختار له أمهر الصناع ، وقد انتهى بناء المصنع ، ونقلت إليه « مكنات » النسيج والحياكة والتطريز والطلاء والصباغة وآلاتها وأدواتها الميكانيكية واليدوية .

ويحوى المصنع غرفاً فسيحة للادارة ومستودعات وأبهاء رحيبة ، ويقع في أرض واسعة .

وإذا كان الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع قد اختار لصناعة الكسوة أمهر الصناع فقد اختار لإدارتها موظفين قادرين ؛ ويشرف عليهم وعلى المصنع هو نفسه .

وقبل إنجاز بناء هذا المصنع الحديث صنع العمال السعوديون خلال السنوات الماضية أروع كسوة في تاريخ الكعبة منذ عرفتها حتى الآن .

ومن اهتمام الملك خالد وولي عهده الأمين فهد بن عبد العزيز بالكسوة افتتح مصنعها يوم السبت ٧ ربيع الآخر سنة ١٣٩٧ هـ (٢٦ مارس ١٩٧٧ م) تحت رعاية حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة نيابة عن حضرة صاحب السمو الملكي الأمير العظيم فهد بن عبد العزيز نائب الملك خالد وولي عهده اللذين يعود إليهما وإلى الملك الشهيد فيصل رحمه الله إنشاء هذا المصنع العظيم .

والآن ، وقد تم هذا العمل الرائع المبرور فقد أصبحت الكسوة مترهة

عن الأهواء وتحكم السياسة فيها بعد أن وكل إلى مكة المكرمة أن تصنع كسوة كعبتها المعظمة على أيدي أبنائها البررة وإشرافهم .

ومن تمام فضل الله سبحانه وتعالى وإسباغه النعمة علينا أن تخرج الكسوة من أيدي أبناء مكة آية من آيات الروعة والكمال والفن .

وهذه الروعة التي أكرمنا الله بها ثمرة فضله العميم ثم ثمرة جهد وزير الحج والأوقاف الشيخ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع الذي نرجو له المزيد من التوفيق ، كما ندعو الله تبارك وتعالى أن يمد في عمر مليكنا وولي عهده وكل أعوانهما ، ويوفقهم وإيانا لما يحب ويرضى .

١٧ رمضان ١٣٩٧ هـ
١ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧ م

أحمد عبد الغفور عطار

الكعبة المشرفة وبناؤها

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدْيَ والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وان الله بكلِّ شيء عليم ﴾ .

فالكعبة المشرفة بيت الله جل جلاله ، وقد نسبه الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إذ قال : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود ﴾ .

ونسب الله عز وجل البيت إلى نفسه إعلاماً لخلقه بما له من قداسة وحرمة وجلال ، وتكريماً له وتشريفاً ، حتى يكون في الأرض للناس جميعاً يلوذون به ، ويثوبون إليه ، ويجدون فيه أمن النفس من الخوف والجوع فيعبدون الله في رحابه عبادة صحيحة .

وقد ثبت على التحقيق أن الكعبة المشرفة بيت الله الذي كان أول

بيت وضع للناس لعبادته عبادة صحيحة ، فما على ظهرها بيت سواه قبله ، لأنه هو الأول على الإطلاق ، وبقيت هذه الأولية له حتى يومنا هذا ، لأن كل بيت من بيوت الله التي تلته كان بعده وفرعاً منه .

وما يزال بيت الله حتى هذا اليوم وإلى أن يرث الله الأرض هو بيته الأول الفاذُّ الذي لا بيت سواه يسمو إلى مكانته .

ومن عظم البيت وجلاله وشرفه جعله حرماً آمناً أحاطه بأرض حرام من جميع جوانبه ، لا يجوز فيه ما يجوز في غيره إلا ما حرم رسول الله ﷺ ، وقد جاء في الوحي المقدس على لسان رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله الكريم : « يا أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة ، لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، أو يَعْضد شجرة ، لم تحلل لأحد كان قبلي ، ولا تحل لأحد يكون بعدي »[1] .

وهذا من كمال شرف الكعبة والبلد الأمين الذي جعل فيه بيته المحرم ، وعظم هذا الشرف بمولد الرسول الأعظم ، سيدنا محمد ﷺ ، واختيار الله إياه للرسالة الخالدة العظمى التي ختمت بها رسالات الله كما ختم بنبيه محمد رسله ، وجعله أعظمهم وسيدهم وخاتمهم ، ومن شرف بلد الله الأمين انطلاق هـذه الرسالة منه ، فكان مصدر البركة والهدى والخير على مر الدهور .

فالبيت موجود على الأرض منذ خلق الله السماوات والأرض ، لأنه أول بيت على الإطلاق .

وأوحى الله إلى خليله ابراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام أن يرفع قواعد البيت فرفعه هو وابنه اسماعيل ، وفي الأثر أن من

---

١ كان هذا يوم فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة .

سبقوهما من الأنبياء قد زاروه ، وفي حديث محمد صلوات الله وسلامه عليه أن رسلاً كراماً قد حجوا البيت .

وبناء ابراهيم واسماعيل للبيت كان منذ أربعة آلاف سنة هجرية ، لأن ابراهيم قدم إلى مكة المكرمة حرسها الله مع زوجه هاجر وابنه اسماعيل سنة ٢٥٧٢ قبل مولد سيدنا محمد ﷺ ، ورفْع قواعد البيت من قبل ابراهيم واسماعيل كان بعد ذلك ببعض العقود من السنين .

وهل يبتدىء البيت من وقت رفع سيدنا ابراهيم قواعده أم هو أقدم من عهده وسابق لبنائه .

للعلماء أقوال ، فمنهم من ذهب إلى أن البيت لم يكن قبل ابراهيم ، وآخرون ذهبوا إلى وجوده قبله .

ونحن مع من يرى وجوده قبل سيدنا ابراهيم ، وشاهدنا من كلام الله نفسه في كتابه العزيز ، إذ جاء فيه حكاية على لسان ابراهيم عندما جاء بزوجه هاجر وابنه اسماعيل من فلسطين إلى مكة : ﴿ ربِّ إني أسكنتُ من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ .

فالله جل جلاله قد أوحى إلى نبيه ابراهيم بما أوحى إليه من نقل زوجه وابنه إلى الوادي غير ذى الزرع ، وعرّفه الموضع الذي ينزلهما به عند بيته المحرم .

ويجوز أن تكون معرفة ابراهيم لما سيكون في المستقبل، ولكن ذهابنا إلى أن البيت أقدم من عهده ، لأن خاتم رسل الله محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام قال : « ان الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض الخ » .

وتحريم مكة كان بسبب بيت الله المحرم الذي هو الحرم الأصيل ،

ومنه امتدت الحرمة إلى كل مكة التي بيّن الوحي المقدس حدود هذه الحرمة التي اكتسبتها مكة من بيت الله .

فابراهيم عليه الصلاة والسلام كان على علم بأن الموضع الذي أنزل فيه زوجه وابنه قرب مكان البيت الذي لم يكن يعلم موضعه عند إنزالها فيه وهو داخل الحرم ، ثم عينه الله له حتى يرفع منه قواعده هو وابنه اسماعيل بدليل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وإذْ بَوّأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ .

ومعنى ﴿ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ هيأناه له وعرفناه إياه وأريناه وعيناه ليبنيه بعد أن كان دارساً .

وذكر العلماء الذين ذهبوا إلى وجود البيت قبل ابراهيم أن البيت كان موجوداً قبله ؛ ولكنه درس ، وأعلمه الله بالمكان الذي يكون فيه بيته المحرم بدليل الآية السابقة ، دون أن يعرف موضع البيت نفسه ، لأن هذه المعرفة سابقة لأوانها .

ويظهر لنا من رحلة ابراهيم إلى الحجاز ومن الآيات التي تتصل بهذه الرحلة أن الله تبارك وتعالى أراد أن يجعل من مكة البلد الآمن الذي تهوي إليه أفئدة الناس إلى أن يرث الأرض ومن عليها ، وأن يجعلها مهبط الوحي ومنطلق خاتمة الرسالات وبلد خاتم الرسل ، فمهد لذلك بأن يكون اسماعيل تمهيداً للرسول الذي يأتي في آخر الزمان من هذه البلدة التي خلقها الله يوم خلق السماوات والأرض ، وحرمها منذ بدء هذا الخلق ، وأن يكون أباً للأمة الكريمة التي سيكون منها خاتم الرسل ، وتكون خير أمة تخرج للناس ، ولهذا أراد الله سبحانه وتعالى أن ينشأ اسماعيل والأمة التي ستأتي منه بعيدين عن أمم شمال الجزيرة حتى يحتفظا بالفطرة السليمة والملكات الطيبة .

وتكون بداءة تحقيق هذه الإرادة الإلهية مرحلة الإسكان بالأرض

المختارة بالوادي غير ذي الزرع ، هذه المرحلة التي نص عليها القرآن الذي حكى قول ابراهيم في دعائه لربه : ﴿ رب إني أسكنتُ من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ .

وفي هذا المكان الطاهر المقدس ينشأ إسماعيل في رعاية أمه المؤمنة يرعاهما الله جل جلاله .

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى ابراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن ، لا يضيعنا ، ثم رجعت .

« فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ .

ويقول ابن عباس : « فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه ، تريد نفسها ، ثم تسمّعت أيضاً فقالت : لقد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم ، فبحث بجناحه — أو قال : بعقبه — حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف ، فشربت ، وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن

هذا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه ، وان الله لا يضيع أهله » .

فهذا المشهد حافل بالصور التي تؤكد أن المستقبل لهذا الطفل ولهذه البقعة ، وان الله حافظها ولا يضيع أهله .

وتطمئن أم اسماعيل ، ومنذ ظهور ماء زمزم تجتذب هذه البقعة الناس فيشاركونهما السكن .

وينشأ إسماعيل في رعاية أمه النبية المؤمنة المصدقة بكل ما تسمع عن الله .

وفي هذه المرحلة : مرحلة الإسكان يعرف ابراهيم بوحي من ربه أن موضعه عند بيته المحرم ، وتعرف أم اسماعيل بوحي من ربها نقله إليها الملك أن هذا بيت الله يبنيه ابنها وأبوه .

وأمضى إسماعيل طفولته وشيئاً من شبابه قرب بيت الله بل عنده ، فلما تهيأ لأن يجري على يديه ما أنبأ به الملك وهو أن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه جاء إبراهيم إلى ولده لينفذ أمر الله ، ويهيء لابنه أسباب الرسالة التي سيضطلع بها ، فبدأ بعد مرحلة الإسكان مرحلة جديدة على مشهد من إسماعيل بعد أن صار مدركاً فاهماً لما سيجري ، تلك هي مرحلة تعيين موضع البيت وتطهيره كما دل عليهما القرآن : ﴿ وإذْ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهِّرْ بيتيَ للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ .

وإذا كانت هذه الآية تدل على أن الأمر بالتطهير خاص بإبراهيم فإن هناك آية أخرى تدل على أن الأمر لإبراهيم وإسماعيل وهي قوله تعالى : ﴿ وعَهِدْنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ .

ومقصدنا من هذا الشاهد أن إسماعيل في هذه المرحلة كان مدركاً

حق الإدراك كل هــذه المعاني التي تمهد لرســالته ، وتهيئه للاضطلاع بمهامها ، وتثبت قدرته لمشاركة أبيه الذي هيأ الله له مكان البيت وعينه له وأراه إياه لتنطلق منه كلمة التوحيد على وجه الأرض لتصل إلى كل رَجَـأ من أرجائها ، ويقومان بتطهير البيت ! .

ولمن يكون تطهير البيت ؟ للطائفين والقائمين والعاكفين والمصلين ، ولا بد للطائف من بناء يطوف به .

وهنا تبدأ المرحلة الثالثة التي يشترك فيهــا إبراهيم وإسماعيل بعد أن اشتركا في الثانية ، وان كان إبراهيم هو الإمام الذي يأتم بـه ابنه حتى يتهيأ عقلاً وروحاً وجسداً للإمامة بعد أبيه في الوادي الذي نزل به لينشأ عند بيت الله نشأة صالحة ، ويقوم في هذا المكان المبارك بيت الله رمزاً على التوحيد وكلمته التي تنطلق منه على مر الدهور إلى جميع الآفاق .

ويشترك الأب وابنه في رفع قواعد البيت كما دل عليه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وإذْ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربَّنا واجعلنا مسلميْن لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك التواب الرحيم ﴾ .

وبرفع قواعد البيت تم المهمة التي تكمل بالفرائض واداء المناسك .

فالبيت موجود منذ خلق الله السماوات والأرض ، وبناؤه غير معروف لدى البشر ، لأنه لم يرد فيه نص واضح يحدد زمنه ، وإنما يفهم من الآيات التي استشهدنا بها ومن حديث الرسول عام فتح مكة ومن حديث ابن عباس أن البيت كان موجوداً ، وعرفت مكانه أم إسماعيل ثم اسماعيل كما كان يعرفه إبراهيم .

ومن المعقول والمقبول أن البيت كان قائماً فدرس ، فرفــع إبراهيم وإسماعيل قواعده بعد أن عرفا موضعه ، وأظهراه للناس حتى يكون لهم

رمزاً على التوحيد ودين الله الحق ، يطوفون به ، ويعتكفون عنده ، ويقيمون الصلاة في جواره ، ويحجون إليه .

ومنذ أن تمَّ رفع قواعد البيت على يد إبراهيم واسماعيل أذَّن إبراهيم للناس بالحج يأتون إلى هذا البيت ، واشترك معه اسماعيل في دعاء ربهما : ﴿وأرنا مناسكنا﴾ مناسك هذا الحج .

وبناء البيت على أيدي الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل كان على التقريب منذ أربعة آلاف سنة من السنين القمرية .

ومنذ ذلك الزمن حتى اليوم وبيت الله مقصود من حجاجه ، وان كان قد دخل إلى عقيدة التوحيد من الشرك والوثنية ما دخل فيها ، ومع هذا بقي البيت الحرام مقدساً لدى المؤمنين والمشركين والوثنيين يحجون إليه إلى أن أكرم الله الوجود الانساني بالرسول الأعظم محمد خاتم الرسل صلى الله عليه وعليهم وسلم ، فطهر بيت الله من الأوثان والأصنام وعبادتهما .

وفي السنة العاشرة تمت طهارة البيت والحج إليه من كل ضروب الوثنية وعاداتها ، فلم يعد منذ تلك السنة يحج إلى البيت كافر ، أو يطوف عريان ، وعادت إلى بيت الله قداسته التامة الشاملة ، وصار قبل ذلك قبلة المسلمين أنى كانوا من مشارق الأرض ومغاربها ، يتجهون إليها ليل نهار في صلواتهم ليرددوا على الدوام تكبير الله وتحميده :

﴿الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ .

وهذا الحمد الحق لله رب العالمين على نعمه التي لا تحصى ، وأكبر هذه النعم طراً نعمة الإسلام دين جميع الرسل منذ أول رسول حتى خاتم رسل الله .

ومنذ ارتفاع البيت على يد إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلى نبينا صلوات الله وسلامه صار مثابة للناس وأمناً ، ولم ينقطع عنه ذكر الله تعالى ، وان كانت الأصنام والأوثان قد دخلت فيه حتى ازدحم بها ، فلما أكرم الله الأرض وأنعم على البشر بمحمد عليه الصلاة والسلام طهر البيت من رجس الشيطان ، وعاد الطهر التام فلم يُدْعَ بين يديه غير الله جل جلاله .

وكان الناس على اختلاف دياناتهم ومللهم ونِحَلهم مجمعين على تقديس البيت واجلاله واحترام أهله ومن يفدون إليه ، وبلغ بهم الإجلال إلى حد أن يرى المرء قاتل أبيه أو ابنه ولا يمسُّه بأذى ، لأنه في الحرم حيث الأمن مضمون لكل من يمشي على أرضه .

كان هذا في عهد الجاهلية والشرك ؛ فلما جاء الإسلام زادت القداسة حتى حرم فيه الصيد وقطع شجره وأخذ لقطته إلا للتعريف حتى يأخذها صاحبها .

وكمل للبيت شرفه من غير نقص فيه أن جعله الله قبلة لكل قارات الأرض يتجه إليه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها في كل يوم خمس مرات ، فكان بيت الله مركزها ، والأرض كلها تحيط به .

وما يكون على ظهرها مؤمن لا يتجه إليه ، فإذا لم يجعلها قبلته خرج من الإيمان كله ، لأن الصلاة هي العلامة الفارقة بين المؤمن والكافر ، وتاركها لا يتخذ البيت قبلته فهو غير مؤمن .

ومن فضل الله وكرمه على سكان بلده الأمين أهل مكة حرسها الله وحرسهم أن جعل بيوتهم مثل بيته المعظم ، فالمسلمون في غير مكة المكرمة بمشارق الأرض ومغاربها لا يستطيعون تحرير قبلتهم إلى الكعبة

المشرفة نفسها فيتجهون إلى مكة زادها الله شرفاً وتعظيماً ومهابة ، فيصلون إلى الكعبة وبيوت مكة .

ومـا أسعدني بإكرام الله إياي إذ جعلني من أهلهـا ، وجعل لي بهـا بيتاً ! .

وهنيئاً لأهل مكة بهـذا الشرف الذي يجب أن يحافظوا عليـه بأن يكونوا صالحين مصلحين .

حرمة الكعبة ومكة

وإيذان ابراهيم بالحج وأدائه مناسكه

أدرك المؤمنون أن الله تبارك وتعالى أنعم على عباده بإقامة بيت له على ظهر الأرض بأقدس بقعة وأطهرها وأشرفها ليكونوا على صلة به ، ولتتصل الأرض والسماء في توحيد الله .

وبعد أن بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام بيت الله الحرام ورفعا قواعده ، أوحى الله إلى إبراهيم : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ .

وقبل أن يأمره الله بأن يؤذن في الناس بالحج أمر الله إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود إذ قال : ﴿ وطهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ .

فبناء إبراهيم وإسماعيل بيت الله ليكون مثابة للناس وأمناً ، وملتقى للمؤمنين ، ومطافاً ومعتكفاً ومكاناً مقدساً للمصلين .

فمند أن تم بناء بيت الله ارتفعت منه كلمة التوحيد ، وأدى المؤمنون

بين يديه صلاتهم ، وتصعدت من رحابه الطاهرة أدعيتهم ، وطافوا به ليل نهار .

وكان بذلك أول بيت وضع للناس لعبادة الله عبادة صحيحة ، ولم يكن الناس يدركون أنه آخر بيت يقام على وجه الأرض لرب العالمين ، لأن هذا الادراك سابق لأوانه ، حتى إذا بعث الله محمداً عليه صلوات الله وسلامه رحمة للعالمين عرف الناس أنه أول بيت وآخره ، وما عداه فرع له وامتداد ، يرتبط بـه ارتباطاً وثيقاً في خير صنوف العبادات وهي الصلاة ، فكل بيت على ظهر هذه الأرض يتجه إليـه في الصلاة وإلا لم يكن مسجداً ولا بيتاً من بيوت الله .

وليؤكد الله شرف بيته وشرف بلده الأمين جعل بيته بيتاً حراماً يقوم في بلد حرام ، وقد قال رسول الله ﷺ يوم فتح الله عليه مكة – والحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما – :

« إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها » [1] .

وعن الصحابي الجليل أبي شريح العدوي رضي الله عنه قال لعمرو

---

١ لا يعضد شوكه : لا يقطع. لا ينفر صيده : لا يتعرض له أحد باصطياده أو إزعاجه. لا يلتقط إلا من عرفها ، أي حرام أن يلتقط أحد لقطتها ، واللقطة : ما يكون ملقى في الطريق، ولا يلتقطها الا اذا أراد أن يعرفها او يسلمها للحكومة . ولا يختلى خلاها ، الخلا : العشب الرطب ، ولا يختلى : لا يجز .

ابن سعيد الأموي[1] : أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغدَ من يوم الفتح ، سمعته أذناي ، ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي حين تكلم به أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن مكة حرمهـا الله ولم يحرمهـا الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترَخَّصَ بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيهـا ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتهـا بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب » .

وفي أحاديث تحريم المدينة عن عبد الله بن زيد بن عاصم أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلهـا ، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثل ما دعا به ابراهيم لأهل مكة » .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « إن إبراهـيم حرم مكة ، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها لا يقطع عضاهها[2] ، ولا يصاد صيدها » .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة على حرمة الكعبة ومكة ، فهما حرام حرمه الله سبحانه وتعالى ، ولم يحرمه أحد .

---

١ عمرو بن سعيد هذا أموي ولاه يزيد بن معاوية امارة المدينة المنورة ، وليس هو بصحابي ، ولا كان من التابعين باحسان ، وكان من شرار الناس ، ولقب بالأشدق ، لا لسعة في شدقه تلك السعة التي يوصف بها الخطيب البليغ ، وانما لقب بالأشدق – كما ذكر القسطلاني – لأنه صعد المنبر وبالغ في شتم سيدنا الامام علي كرم الله وجهه فأصابته لقوة وهو داء يصيب الوجه يعوج منه الشدق ، لقد انتقم الله من هذا الأموي على مرأى من الناس تلقاء لعنه وشتمه للإمام علي المبشر بالجنة .

٢ العضاه ، مثل كتاب : شجر من أشجار الشوك ، واحدتها : عضاهة .

وفي حديث تحريم مكــة قول الرسول ﷺ : « إن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس » وفي تحريم المدينة قوله عليه الصلاة والسلام : « إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة » .

ولا يفهمن أحــد أن بين الحديثين تناقضاً وتعارضاً ، والمعروف في ديننا الحنيف أنه لا يملك أن يحلل أو يحرم أحد غير الله ، هو وحده الذي يحلل ويحـرم ، والمراد بتحريم مكة من قبل سيدنا إبراهيم أن الله أوحى إليه بأن يعلن حرمــة مكة التي حرمهـا الله يوم خلق السماوات والأرض ، وكذلك حرمة المدينة ، وتحريمها من قبــل سيدنا محمد أن الله أوحى إليه بأن يعلن حرمة المدينة فأعلنها .

فالله عز وجل حرم مكة منذ خلق السماوات والأرض ، لأنه علـم أنه سيجعل فيها بيته المحرم .

ولهذا قيل لبيت الله : حرم ، وللمسجد الحرام : حرم ، لأن الله جعل مكة حراماً من حرام من حرام إلى يوم القيامة .

وقد أعلن أبو الأنبياء إبراهيم حرمــة مكة ، وأذن في الناس بالحج فلبوا النداء ، وأراهم المناسك ، فقد صعد إلى عرفات ، وأفاض إلى المزدلفة ثم إلى منى ، وطاف وسعى وحلق ، وأدى كل مناسك الحج .

وانتهت بذلك رسالة سيدنا إبراهيم وعــاد إلى وطنه ، تاركاً ابنــه إسماعيل الذي اختاره الله لرسالته التي حملها بعد أبيه .

وتبقى حرمة مكة مصونة ومرعيــة ، إلا أن بعض الحكام استباحوا هذه الحرمة وانتهكوها ، فنشبت بينهم حروب مثل الحرب التي كانت بين العماليق وجرهم ، والحرب العدوانية التي شنها الأمويون على عبد الله ابن الزبير الذي استشهد سنة ٧٣ من الهجرة .

وفي هذه الحرب ضرب أهل الشام الكعبــة بالمنجنيق ، فقد سلطوا

مجانيقهم على الكعبة يقذفونها بالحجارة التي كانت تصيب المصلين والطائفين والركع السجود ، ولم يكتفوا بالحجارة ، فقد قذفوا الكعبة بالنفط المشتعل حتى أكلت النار ما تصدع من الكعبة من جراء الحجارة .

وأفظع انتهاك لحرمة البيت الحرام ومكة ما وقع من القرامطة يوم التروية ، وهو يوم الثامن من ذي الحجة سنة ٣١٧ هـ عندما دخلوا مكة بإمرة أبي طاهر القرمطي ، وضرب الحجر الأسود ، وقتل هو ورجاله آلاف الحجاج في المطاف بين يدي الكعبة ورحاب المسجد الحرام ومكة ؛ ولم يفرقوا بين شيخ وامرأة وطفل ، وقتل من أهل مكة كثير في الذود عن حرمة البيت ، وألقى القرامطة بجثث الشهداء في بئر زمزم حتى امتلأت بهم ، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه ورحلوا به عائدين إلى وطنهم بهجر وهي الأحساء .

وانتهك حرمة بيت الله أفراد سيأتي ذكرهم في فصل الحجر الأسود إن شاء الله .

وآخر انتهاك لبيت الله كان من قبل الترك سنة ١٣٣٤ هـ عندما ثار عليهم الحسين بن علي شريف مكة ، فقذفوا الكعبة والمسجد الحرام بالرصاص والقنابل .

سدانة الكعبة

في يد اسماعيل ثم أولاده ، ثم أخوالهم

بعد مغادرة إبراهيم مكة كانت سدانة الكعبة إلى ابنه إسماعيل الذي اشترك مع أبيه في بناء البيت ، ولم ينازعه أحد فيها ، لأنهم كانوا يعرفون فضله وإمامته ، وكان كل عهده عهد إيمان وتوحيد ، وولد له اثنا عشر ولداً أكبرهم ثابت ، نشأوا على الإيمان .

وكان الحج إلى بيت الله الحرام فريضة تؤدى مناسكها على سنة أبي الأنبياء إبراهيم .

وعاش إسماعيل مئة وسبعاً وثلاثين سنة ، ومات بمكة ودفن بالموضع المعروف بحجر إسماعيل بين يدي الكعبة وعلى مقربة منها ، وهو بالمسجد الحرام ، وذكر أن بالحجر مدفن أمه هاجر عليها السلام .

وتولى سدانة الكعبة ابنه ثابت ، فسار بسيرة أبيه ، وبارك الله في أولاد إسماعيل فكثرت ذرياتهم ، وانتقلت سدانة الكعبة من ولد إسماعيل إلى أخوالهم بني جرهم ، ولم ينازعوهم إيماناً منهم بحرمة البيت ، إذ حرم الله القتال ببلده ، واحتراماً لخؤولة الجرهميين فتركوا لهم السدانة .

وعهد أولاد إسماعيل كان عهد إيمان وتوحيد ، وكذلك كانت عهود

ذرياتهم الذين كثروا بمكة ، فرأوا أن يرحل كثير منهم يبشرون بدين الله ، وقد أظهرهم على أعدائهم .

وبعد ثابت كانت السدانة لإخوته الذين نازعهم عليها أخوالهم من زعماء جرهم وتولوها دون قتال ، لأن أولاد إسماعيل كانوا مؤمنين بحرمة البيت .

وأول من تولى من الجرهميين سدانة الكعبة الحارث بن مضاض الجرهمي ، ولم يكن حكم مكة كلها له ، بل كان يحكم أعلى مكة حيث قعيقعان ، وكان أسفل مكة تحت حكم السميدع ، سيد قطوراء وهو ملك العماليق .

وكان كل منهما يعشر من يمرون به ، ويظهر أنهما لم يكونا على وفاق ، لأن نزاعاً ثار بينهما أدى إلى قتال انتهى بهما إلى صلح جعل السدانة للعماليق ، إلا أن كرة من جرهم أعادت إليهم ولاية البيت وصاروا حكام مكة .

ويقول المسعودي في « مروج الذهب »[1] ٢ / ٢٣ عن الجرهميين : « وكانوا ولاة البيت نحو ثلاثمئة سنة ، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر بن عمرو بن الحارث بن مضاض الأكبر ، وزادوا في بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام » .

ويذكر المسعودي وغيره أن بني جرهم بغوا في الحرم وطغوا حتى أن رجلاً منهم يقال له اساف فجر بامرأة منهم تسمى « نائلة » بجوف الكعبة فمسخهما الله حجرين ، وضارا وثنين يعبدان من دون الله .

ويذكرون أن القوم نحتوا تمثالاً لكل منهما وسمي باسم صاحبه .

---

١ الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) نشر مكتبة الاندلس ، تحقيق يوسف أسعد داغر .

ولم تدم السيادة للجرهميين الألى زاد بغيهم وطغواهم ، فقد أصيبوا بآفات أرسلها الله إليهم ، فهلك كثير منهم بسببها ، وفقد من سلم منهم القوة التي انتقلت إلى بني إسماعيل فأخرجوا من بقي من الجرهميين من مكة فلحقوا بجهينة ، ونزلوا بموضع يسمى « أضم » حيث جرفهم سيل جاءهم ليلاً .

وعادت ولاية الكعبة إلى بني إسماعيل حيث تولاها بنو إياد بن نزار ابن معد ، إلا أن نزاعاً ثار بين إياد ومضر ابني نزار ، ونشبت بينهما حروب انتهت بانتصار مضر وهزيمة إياد الذي اضطر إلى مبارحة مكة والهجرة إلى العراق ه

وكان إياد وعشيرتــه قد شعروا بأنهم مهزومون وكانت لهم ولايــة الكعبة ، فرأوا حرمان مضر من الحجر الأسود فاقتلعوه ودفنوه سراً ، ولكن امرأة من خزاعة اطلعت على السر فأخبرت قومهـا الذين كانوا ينزلون بمكة ، ولم يشتركوا في الحرب بين إياد ومضر حتى انتهت بهزيمة إياد وسفرهم إلى العراق .

ويذكر المسعودي (مروج الذهب ٢ / ٢٩) أن إياداً « قلعت الحجر الأسود ودفنته في بعض المواضع ، فرأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها ، فاشترطوا على مضر أنهم إن ردوا الحجر جعلوا ولايــة البيت فيهم ، فوفوا لهم بذلك ، ووليت خزاعة أمر البيت ، وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحي » .

وصار أمــر البيت ومكة لخزاعــة ، وتفرد زعيمهــا عمرو بن لحي بالسيادة المطلقة .

الكعبة تحت سدانة الوثنية

كانت الإبراهيمية ديانة التوحيد السائدة بالحجاز كله ، وبمكة خاصة . والإبراهيمية نسبة إلى سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وكانت فرائض العبادة ومناسك الحج تؤدى على ديانة إبراهيم ، حتى إذا تولت خزاعة السلطة بدأ أخطر انقلاب في تاريخ الديانة الإبراهيمية ، إذ دخلت الوثنية مكة على يد عمرو بن لحي الخزاعي ، وسيطرت على الكعبة على مرور أيام هذا الوالي الكفور .

يقول ابن كثير في « البداية والنهاية » ٢ / ١٨٧ : « واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمئة سنة ، وقيل : خمسمئة سنة ، والله أعلم ، وكانوا سوساً [١] في ولايتهم ، وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان ، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحي لعنه الله ، فإنه أول من دعاهم إلى ذلك ؛ وكان ذا مال جزيل جداً ، يقال : إنه فقأ أعين عشرين بعيراً ، وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف بعير ، وكان من عادة العرب أن من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها ، لأنه

---

١ في الأصل : « سوس » وعلق ناشرو الكتاب في الهامش : « كذا بالأصل ولعلها : « وكانوا قوم سوء في ولايتهم » وفي اللغة : سوس كل شيء آكله ، دوداً كان أو غيره ، وعليه يقال : « كيف تكون الرعية مسوسة اذا كان راعيها سوسة » .

يدفع بذلك العين عنها ، وممن ذكر ذلك الأزرقي .

وذكر السهيلي : « أنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة في كل سنة ، يطعم العرب ، ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ، ويلت لهم السويق .

قالوا : وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع لشرفه فيهم ، ومحلته عندهم ، وكرمه عليهم » .

قال ابن هشام : « حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق ، ويقال : ولد عمليق بن لاوذ بن سام ابن نوح ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنماً يقال له : هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه » .

قال ابن إسحاق : « ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه »

وفي الصحيح عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا بها .

قال ابن إسحاق : « واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم عليه السلام يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفات والمزدلفة وهدي البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه » .

وفي « مروج الذهب » ٢ / ٢٩ : « وليت خزاعة أمر البيت وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحي ، واسم لحي حارثة بن عامر ، فغير دين إبراهيم وبدله ، وبعث العرب على عبادة التماثيل لخبر قد ذكرناه في هذا الكتاب وغيره حين خرج إلى الشام ورأى قوماً يعبدون الأصنام فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة ، وقويت خزاعة ، وعم الناس ظلم عمرو بن لحي » .

هذه نقلة جد خطيرة في تاريخ ديانة التوحيد ، فقد استبدل بها عمرو ابن لحي الوثنية وأحلها محل الإبراهيمية لأسباب قومية وسياسية ودينية ، فهو حاكم الحجاز ومكة والكعبة ، وديانة إبراهيم محصورة في هذه البقعة الصغيرة من الأرض ، وهي تخالف كل ديانات العالم القديم ، فهي شاذة ، وليس الشذوذ في مصلحة حكمه .

وقد يؤدي هذا الشذوذ إلى صراع ديني في غنى عنه إذا انقلب وثنياً مثل الأمم التي تتصل بمكة في تجارتها ، فتكون الأخوة الوثنية سبباً في السلام الذي ينشده ابن لحي .

وأراد ابن لحي أن يستغل الكعبة المشرفة التي يلي أمرها فيتخذها وسيلة لجذب القبائل والشعوب ، لأنه مدرك أن مشاركة غير الحجاز ومكة لهما في تعظيم الكعبة دعم لسلطانه ، وتمكين للقومية العربية التي تجعل العرب جميعاً مرتبطين بهذا الرمز المقدس الذي يجمع شتاتهم

ولما كانت مكة طريق القوافل ومركزاً هاماً من مراكز التجارة فإن من أسباب نفوذ حاكمها أن يكون لأهل الشمال ارتباط

بالكعبة ، فنقل آلهة الشمال إلى مكة ووضع في جوف الكعبة بعضها اعترافاً منه بآلهتهم .

ولا شك أن هذا الاعتراف من قبل حاكم مكة ووالي الكعبة بآلهة الشمال التي نقلها إليها يحمل أهل الشمال على الاعتراف بقدسية الكعبة ، ويزيد تقديسهم إياها وجود بعض آلهتهم في جوفها .

وتضطر التجارةُ أهلَ الشمال إلى التردد على مكة ، وعندما يجدون آلهتهم في الكعبة يأنسون إليها ، ويشتركون مع أهل الحجاز ومكة في تعظيم الكعبة .

وطبيعي أن اتفاق الوثنيات مفض إلى توادٍّ أهلها ، فعندما تتفق ديانة الكعبة مع الوثنيات الأخرى في الشعائر يقرب بين أصحاب هذه الديانات ، وتمحى الفوارق بينها وبينهم في المعتقد والشعائر .

ولعل من أطماع ابن لحي في جمع كلمة العرب لتكون لهم قومية واحدة مثل القومية الرومانية والقومية الفارسية تقف في وجه تلك القوميات نقل آلهة الشمال إلى الجنوب حتى يرتبطا قومياً ودينياً ولغوياً ، وحتى يشترك أهل الشمال مع الجنوب في تعظيم الكعبة التي تجمع شتاتهم في وحدة متماسكة .

ولو بقيت مكة على التوحيد لبقي الخلاف بينها وبين الشمال قوياً ، والثقة بينهما بعيدة ، ولن يكون الارتباط الذي تقيمه المصالح الاقتصادية والتجارية وثيقاً وثاقة ارتباط الدين والعقيدة ، ومهما قوي ارتباط المصالح فإن ارتباط العقيدة أقوى ، وعندما تتفق وحدة المصالح الدنيوية مع وحدة الدين تكون الوحدة العامة أكمل وأشمل وأقوى .

ولهذا حدث هذا الانقلاب الخطير بمكة والحجاز على يد عمرو بن لحي الذي بدل دين التوحيد وأحل محله الوثنية والشرك لأسباب سياسية وقومية .

ولو كان ابن لحي مؤمناً حق الإيمان لما قام بهذا الانقلاب الخطير في تاريخ ديانــة الحجاز ومكة ، وقيامه بهذا الانقلاب برهان على ضعف العقيدة الدينية في نفسه .

وبنو خزاعة كانوا مثل سيدهم في ضعف العقيدة ، ولهذا استجابوا لزعيمهم وشاركوه في الوثنية الجديدة ، واستقبلوها استقبالاً حسناً ، لأن نفوسهم مهيأة ، فهم قــد بعدوا عن دين إبراهيم ، وأمعنوا في الظلم والفساد والبغي ، وصموا آذانهــم عن أمر الله ونهيه فانحدروا إلى حيث تكون النفوس مهيأة للوثنية .

وأخذت الوثنية تنتشر منذ دعا إليها ابن لحي حتى صارت الحياة الدينية في مكة والحجاز وثنية مثل سائر جزيرة العرب والعالم كله في ذلك العهد .

وليس شمول الوثنية للعرب جميعاً بناف وجود أفراد موحدين تنزهوا عن الشرك والوثنية ، وعبدوا الله وحده لا شريك له ، فقــد ثبت أن هناك أفراداً تمسكوا بدين إبراهيم ، وأفردوا الله جل جلاله بالعبادة ، ولم يشركوا معه فيها غيره .

ولكن الأحكام تبنى على العموم الغالب ، وشذوذ أفراد عن العموم لا يجرح تلك الأحكام ، لأن الوثنية انتشرت في بــلاد العرب وفيهــا الحجاز ومكة .

وديانة إبراهيم السائدة في الحجاز ومكة قد انزوت في قلوب أفراد ، لأن العموم كانوا قد استبدلوا بديانة التوحيد الديانــة الوثنية التي كانت ديانة كل العرب .

سدانة الكعبة لقريش

كانت ولاية الكعبة لخزاعة ، وآخر من تولاها منهم حُليل بن حُبْشية سيد خزاعة التي كانت أقوى قبيلة بمكة ، لأن سيدهـا كان سيد مكة ووالي الكعبة ، ولم يكن أحد ينازعهم هـذا الشرف ، فلما كبر حليل ومرض وكل الى ابنته حُبَّى ، فاعتذرت لـه بأنـه ليس في وسعها فتح باب الكعبة واغلاقها فجعله إلى أبي غبشان سليم بن عمرو .

ويقول الطبري ٢ / ٢٥٦ : إن قصياً اشترى ولاية البيت من أبي غبشان بزق خمر وبعَوْد – وهو المسن من الإبل – فلما رأت خزاعة ذلك كثروا على قصي ، فاستنصر أخاه فقاتل خزاعة التي أصابتها العَدَسة وهي بثرة خبيثة تخرج في البطن كالطاعـون لا يسلم منه أحد ، وكادت تفنيهم ، فجلوا عن مكة ، فولي قصي الكعبة وأمر مكة والحكم بها . وجمع قصي قبائل قريش فسمي مُجَمِّعاً .

وفي رواية ابن إسحاق – كما ذكر الطبري – أن حليل بن حبشية هو الذي أوصى لقصي وقال له : أنت أولى بالكعبة والقيام عليها وبأمر مكة من خزاعه .

وفي طبقات ابن سعد ٦٨/١ (طبعة بيروت ١٣٧٦ هـ) : « لما تزوج قصي إلى حليل بن حبشية ابنته حبى ، وولدت له أولاده قال حليل :

إنما ولد قصي ولدي ، هم بنو بنتي ، فأوصى بولاية البيت والقيام بأمر مكة إلى قصي وقال : أنت أحق به » .

ويقول الطبري : « قالوا : ويقال إنه لما هلك حليل به حبشية وانتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه رأى أنه أولى بالبيت وأمر مكة من خزاعة وبني بكر ، وأن قريشاً فَرْعَة[1] إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده ، فكلم رجالاً من قريش وبني كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة ، وقال : نحن أولى بهذا منهم ، فأجابوه إلى ذلك وتابعوه ، وكتب قصي إلى أخيه ابن أمه رزاح بن ربيعة بن حرام العذري يدعوه إلى نصرته ، فخرج رزاح وخرج معه إخوته لأبيه : حُنَّ ومحمود وجُلْهُمَة فيمن تبعه من قضاعة حتّى قدموا مكة ، وكانت صوفة وهم الغوث بن مُرٍّ يدفعون بالناس من عرفة ولا يرمون الجمار حتّى يرمي رجل من صوفة .

« فلما كان بعد ذلك العام فعلت ذلك صوفة كما كانت ، فأتاها قصي بمن معه من قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة فقالوا : نحن أولى بهذا منكم ، فناكروهم فاقتتلوا قتالاً شديداً حتّى انهزمت صوفة ، وقال رزاح : أجز قصيّ ، فأجاز الناس وغلبهم على ما كان في أيديهم من ذلك ، فلم تزل الإفاضة في ولد قصي إلى اليوم ، وندمت خزاعة وبنو بكر فانحازوا عنه ، فأجمع قصي لحربهم فاقتتلوا قتالاً شديداً بالأبطح حتّى كثرت القتلى في الفريقين ، ثم تداعوا إلى الصلح وحكّموا بينهم يعمر بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فقضى بينهم بأن قصي بن كلاب أولى بالبيت وأمر مكة من خزاعة ،

---

١ فرعة الجبل: اعلاه ، يريد أن قريشاً في الذروة من ولد اسماعيل . وفي ابن هشام : قرعة ، والقرعة : نخبة الشيء وخياره .

وأن كل دم أصابه من خزاعه وبني بكر موضوع يشدخه تحت قدميه ، وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبني كنانة ففيه الدية ، وأن يُخَلّى بين قصي وبين البيت وأمر مكة .

فسمي يومئذ يعمر الشدّاخ لما شدخ[1] من الدماء » .

وأم قصي بن كلاب هي فاطمة بنت سعد بن سيل — واسمه خير — من أزد شنوءة ، فولدت لكلاب زهـرة وقصياً الذي كان اسمه زيداً ، ومات كلاب وقصي صغير ، وشب زهرة وكبر ، ولم تتزوج أمهما .

وقدم إلى مكة ربيعة بن حرام من قضاعـــة وتزوج فاطمة أم زهرة وقصي ، ولما كان زهرة كبيراً تركته أمـه ومضت مع زوجها مصطحبة معها ابنها قصياً وكـــان فطيماً ، ونشأ في قضاعة في بلادها بأرض بني عذرة من أشراف الشام .

ورزقت أم قصي من زوجها الآخر ابنها رزاحاً ، وكان لرزاح ثلاثة إخوة من أبيه من امرأة أخرى وهم : حن ومحمود وجلهمة .

وصار قصي شاباً ، وذات يوم حـدث بينه وبين شاب من قضاعة خصام فقال له القضاعي : أنت لست منا ، ألا تلحق بنسبك وقومك ؟.

وكان قصي لا يعرف له أباً غير ربيعة زوج أمه ،وكان يقال له: قصي ابن ربيعة ، فلما سمع من الشاب القضاعي قالته انفتل إلى أمه يسألها فأجابته: والله ، يا بني ، انك أكرم منه نفساً ووالداً ، ونسباً ، وأشرف منزلاً ، أبوك كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، وقومك بمكة عند البيت الحرام وفيما حوله .

وقرر قصي — الذي سمي قصياً لتقصيه في بلاد قضاعة — أن يعود

---

١ شدخ الدم : أهدره وأبطله .

إلى بلده وأهله وقومه ، وخرج من بلاد قضاعة مع حجاجها إلى مكة في الشهر الحرام ، ومضى إلى أخيه زهرة وكان قد شاخ وكف بصره، وعرّفه بنفسه فعرفه .

وخطب إلى زعيم خزاعة وحاكم مكة ووالي الكعبة حليل بن حبشية ابنته حبى وتزوجها كما مر ذكره .

ولما انتصر قصي على خزاعة وبني بكر وغادروا مكة اجتمع إليه قريش الذين كانوا متفرقين ، وسموا قريشاً لتجمعهم ، فالتقرش : التجمع، ومن ذلك العهد عرفوا بقريش .

وقال ابن إسحاق – كما جاء في تاريخ ابن كثير ٢ / ٢٠٧ – : « فولي قصي البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه » .

ويقول ابن إسحاق : كان قصي أول بني كعب أصاب ملكاً أطاع له به قومه ، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة » .

وقصي هو الجد الرابع لسيدنا ونبينا محمد عليه صلاة الله وسلامه ، وقد سن قصي سنناً عظيمة لم يسبقه إليها سابق ، ولم يدركه بعدها لاحق حتى يومنا من سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

فهو أول من أوقد النار بالمزدلفة ليهتدي بها الحجاج المفيضون من عرفات ، ويعرفوا المشعر الحرام .

وزعم بعض المستشرقين في تأليفهم « دائرة المعارف الاسلامية » أن هذه النار التي توقد في المزدلفة إنما هي قربان لإلـه النار .

وهذا تخرص منهم ، فما كان للعرب إلـه نار بين أصنامهم الكثيرة ،

ولم توقد إلا لتكون هداية للحجاج وعلماً على المشعر ، وهذه النار التي توقد للهداية معروفة عند العرب ، فهي إحدى نيرانهم المشهورة .

ومن أعظم السنن التي سنها قصي، الرفادة ، وهي إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يغادروا مكة وعرفات ومنى إلى ديارهم ، لا يدفعون شيئاً تلقاء ما يطعمون .

كان هذا أيام الجاهلية ، وكان أهل مكة يدفعون نفقات الرفادة براً منهم بضيوف بيت الله الحرام ، وتغيرت الحال لتغير نفوس الحجاج وأهل مكة ، فلا رفادة .

يقول ابن إسحاق : « وذلك أن قصياً فرضه عليهم فقال لهم : يا معشر قريش ، انكم جيران الله ، وأهل مكة ، وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيف الله ، وزوار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا ، وكانوا يخرجون لذلك في كل عام من أموالهم خَرْجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية حتى قام الاسلام ، ثم جرى في الاسلام إلى يومك هذا ، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضي الحج » .

والسقاية : إعداد الماء للحجاج حتى يجدوه ويحصلوا عليه في يسر وسهولة بدون ثمن .

والحجابة : ولاية الكعبة المشرفة .

واللواء : عقده من قبل من بيده عقده .

والندوة : دار أقامها قصي لتُقضَى فيها أمور البلاد والشعب .

ولما كبر قصي رأى ابنه الأكبر البكر عبد الدار متخلفاً عن إخوته الثلاثة : عبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد شمس الذين ذهبوا بالمجد

كله شرفاً وسؤدداً وغنى ، فرأى قصي أن يرفع ابنه عبد الدار إلى مصاف أبنائه الآخرين ؛ وقال له : « والله ؛ لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء لحربهم إلا أنت ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها إلا في دارك ، فأعطاه داره دار الندوة التي لا تقضي قريش أمراً إلا فيها، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة[1].

وعودة حكم مكة وولاية أمر الكعبة إلى قصي نقلة تاريخية هامة ، فقد جعل قصي الحكم شورى ، واستن السنن العظيمة ، وعاد الأمر إلى أهله ، فقصي ومن جاءوا بعد من أبنائه هم فَرْعة إسماعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهم كانوا في الجاهلية خيار أهلها وأكرمهم نفساً وحسباً ونسباً ، وأسخاهم يداً ، وأسبقهم إلى معروف .

ويرجع إلى قصي فضل مكانة قريش حتى صار مجدهم لدى العرب باذخاً ، واسمهم لامعاً ، وقضاؤهم نافذاً ، وزادت مكانة الكعبة ، ومكانة مكة التي صارت أعظم بلد حرام مقدس دينياً ، وأشهر مدينة تجارية في جزيرة العرب .

ولا شك أن وجود الكعبة المعظمة جعل لمكة سمعة لا تتمتع بها مدينة في بلاد العرب غير مكة ، فازدحمت بالسكان ، وقصدها القبائل للسكن بها ، كما كان الحجاج يقصدونها كل عام .

ولكي تضمن قريش احترام العرب لها جعلت مكة بعيدة عن صراع القبائل والتيارات السياسية ، وعادت إليها المكانة التي كانت من قبل لها

---

١ تاريخ الطبري ٢/٢٦٠ .

فكانت مثابة للناس وأمناً وصارت مدينة الأمن والسلام والاستقرار ، كما صارت أعظم مركز تجاري في بلاد العرب .

وكانت قريش قد ذهبت بالفخر كله ، فهم ولاة مكة والكعبة والحرم، وهم الذين يطعمون وفود بيت الله ويسقونهم ، وهم أصحاب المال والتجارة ، وذوو الرأي ، ودعاة السلم .

وخير قريش بنو هاشم الذين فضلوا الناس بمكارم الأخلاق وطهر النسب وصفاء الأعراق ، ولم يكونوا الفاضلين لأنهم أصحاب الرئاسة الدينية والدنيوية ، وذوو المال والقوة والشجاعة والكرم وحسب ، بل كانوا الفاضلين لأنهم أصحاب أخلاق وقيم ومُثُل لم تأتهم من خارج أنفسهم ، بل هي طبيعة أصيلة فيهم ، فجاءت أعمالهم وأقوالهم فيضاً من ذلك الطبع الأصيل الشريف .

فما ثَمَّ عمل خير إلا كانوا أهله وأسبق الناس إليه ، وما من شر إلا كانوا أبعد الناس عنه ، وهم بعد خصوم هذا الشر .

وأما الحق فهم أهله وحماته ، لا يقبلون أن يصدر منهم الباطل أو يقع عليهم ، بل لا يقبلون أن يقع الباطل على مرأى منهم أو سمع ، فإذا وقع ناهضوه حتى يحق الحق .

وأراد بنو هاشم أن يتموا ما لمكة من القداسة والمكانة فرأوا أن يمنعوا الظلم عن كل أحد يدخل مكة ، لتكون مثابة للناس وأمناً بحق ، ولا بد لهذا القصد الحسن من حِلف يُشهدون الله عليه ثم الناس ، فتحالف بنو هاشم وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ، وكان بنو هاشم هم الدعاة إلى هذا الحلف الذي أرادوا منه سيادة الحق وازهاق الباطل ، وأن يكون المتحالفون يداً واحدة على الظالم ، ويقوموا مع المظلوم حتى يردوا إليه حقه ، ودخل مع بني هاشم في الحلف أولئك الغيُرُ فتحالفوا حلفاً سموه

حلف الفضول ، وقد حضره رسول الله ﷺ قبل النبوة بعشرين سنة ، فقد كان حلف الفضول وعمر رسول الله ﷺ عشرون سنة .

وكان حلف الفضول عقب حرب الفجار ، فهذه وقعت في شوال ، وتم الحلف في ذي القعدة ، وقيل : كانت الفجار في شعبان .

والذي دعا إلى الحلف الزبير بن عبد المطلب ، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم في دار عبد الله بن جُدْعان بمكة ، وقد حضره رسول الله وهو في العشرين من عمره ، وتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا كانوا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى يردوا إليه مظلمته . فسمت قريش هذا الحلف : حلف الفضول[1] .

وسبب إبرام هذا الحلف أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة اشتراها منه العاص بن وائل ، ومنع عنه قيمتها ، فاستجار بأناس كبار فلم يجيروه على العاص ، بل انتهروا الزبيدي ، فاضطر أن يعلن ظلامته ، فاستجاب الزبير بن عبد المطلب ودعا إلى الحلف ، وعقدوه ، ثم سار أهل الحلف الى العاص بن وائل ، وانتزعوا منه بضاعة الزبيدي ودفعوها إليه .

وقد وصف النبي ﷺ الحلف بعد أن أكرمه الله بالرسالة قائلاً : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دُعي إليه في الإسلام لأجبت » .

وقد ضمن هذا الحلف الحقوق وبخاصة حقوق الغرباء الوافدين إلى

---

١ تاريخ ابن كثير ٢/١٩٣ .

مكة ، فلم تقع مظلمة إلا حادثة الزبيدي التي أثمرت الحلف ، وحادثة أخرى نهض المتحالفون واستردوا حق المظلوم .

وهذا شيء لم يقع قط مثله كما قال الأقدمون ، ونحن لم نسمع بمثل حلف الفضول حتى اليوم .

وليس هذا بمستغرب من أجداد النبي ﷺ ، فهم ذوو القيم والمثل الرفيعة التي لا نجد في كل قبائل العرب لهم نظائر .

وإذا عـادت السدانة لقريش فهم أهل لها أكثر من غيرهم ، فهم ولد إسماعيل ، وخلائقهم الفاضلة تجعلهم أحق بإرث إبراهيم من غيرهم.

ولم يطلبوا السدانة لأنها مغنم دنيوي ، فقد ذكرت كتب التاريخ والسير مغارمهم ، وما كانوا ينفقون في سبيل هذا العمل الديني الجليل من حر أموالهم .

وقد سبق أن ذكرنا أن عبد الدار بن قصي الأكبر الذي أعطاه أمجاده فنهض بمهامه الدينية ، وأوصى لابنه عثمان بالسدانة فتولاها بعـد موت أبيه ، وتولاها بعد عثمان ابنه عبد العزى، ووليها بعده أبو طلحة عبد الله ابن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ، وانتهت إلى عثمان بن طلحـة ابن عبد الله بن عبد العزى .

وعندما تم على يد رسول الله ﷺ فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة كانت السدانة بيد عثمان بن طلحة ، وأخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة ودخلهـا ومعه عثمان وبلال ، ثم خرج فطلب إليه عمه العباس أن يضم الحجابة – أي سدانة الكعبة – إلى السقاية التي كانت له ، فأنزل الله على رسوله الكريم : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فتلاها عـلى المسلمين ، ثم دعا عثمان بن طلحة وأعاد إليه مفتاح الكعبة

وأيد قول الله تبارك وتعالى بقوله الحق : « خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله سبحانه ، واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة لا ينزعها مـــن أيديكم إلا ظالم » .

ومنـــذ ذلك اليوم هي في أيديهم حتى يومنا هذا ، ويقال لهم : الحَجَبَة جمع حاجب ، وينسبون إلى الحجابة فيقال : حَجَبِيُّون في الجمع ، وحَجَبي في المفرد ، ويعرفون بآل الشيبي نسبة إلى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة .

بناة الكعبة
منذ عهد ابراهيم حتى العصر الحديث

ذكر الإخباريون ومن كتبوا لمكة حرسها الله تواريخ أن أول من بنى الكعبة المشرفة الملائكة ثم آدم ثم شيث ثم إبراهيم .

والشيء الثابت من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بناء سيدنا إبراهيم عليه السلام كما ذكرنا في أول فصل من هذا الكتاب .

وذكر الإخباريون ومن كتبوا لمكة تواريخ أن العمالقة بنوها ، وكذلك جرهم ، وهذا بعد بناء إبراهيم وإسماعيل .

وذكر الزبير بن بكار قاضي مكة في كتابه « النسب » أن قصي بن كلاب لما ولي أمر البيت جمع نفقته ثم هدم الكعبة فبناها بنياناً لم يبن أحد مثله ممن بناها قبله .

وذكر الفاسي المكي في « شفاء الغرام » وذكر غيره خبر بناء قصي عن طريق غير طريق ابن بكار ، فقد ذكر الفاكهي أن قصي بن كلاب جدد بناءها بعد بناء إبراهيم ثم بنته قريش ، وجزم الماوردي في كتابه « الأحكام السلطانية » وقال : فكان أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم ﷺ قصي بن كلاب[1] .

---

١ شفاء الغرام (طبعة مكتبة النهضة بمكة) ١/٩٤ .

وقد سبق أن ذكرنا خبر قصي واستيلائه على سدانة الكعبة وسنه سنناً عظيمة لم يسبق إليها أحد قبله ولا أدركه فيها لاحق .

وجدير بمن سن تلك السنن الحسنة أن يجدد بنـاء الكعبة ، فذلك متفق مع سننه .

* * *

وأما بناء قريش فثابت ، وسببه أن امرأة جاءت تطيِّب الكعبة بنار عليهـا طيب فطارت شرارة فأحرقت ثياب الكعبة فتضعضع بنيانهـا ، وقيل : إن السيل كان يصيب الكعبة فيتساقط من بنائها ، وكان رضماً، أي حجارة بعضها فوق بعض .

ومن الجائز جمع السببين ، وتجمير الكعبة واقع ، وكذلك السيل ، وقد رأينا نحن السيل الجارف يدخل الحرم ، ويصيب الكعبة ، كما رأينا الشرر يتطاير من البخور عند تجمير الكعبة .

وعزمت قريش على هدم الكعبة وبنائها بعدما تصدع بنيانها ، ولكنهم خافوا ، ثم تشجعوا ، لأنهم لا يريدون إلا خيراً ، وشارك رسول الله ﷺ في البناء وكان في الخامسة والثلاثين من عمره ، وذلك قبل البعثة النبوية بخمس سنين .

وكان رسول الله ينقل الحجارة مع عمه العباس حتى إذا تم البناء وقع خلاف بين القبائل كاد يؤدي إلى فتنة ، فقد اختلفوا وتنازعوا فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه ، وتريد كل قبيلة أن يكون لها هذا الفخر مدى الدهر ، وأخيراً اتفقوا أن يحكِّموا بينهم أول داخل من باب بني شيبة ، وكان رسول الله ، فقالوا جميعاً : هذا الأمين ، قد رضينا به .

وأخبروه خبرهم ، فأتي بثوب وفرده الأمين ، ودعا من كل قبيلة رجلاً أمسك بطرف ، واشتركوا في رفعـه ، حتى إذا حاذوا موضع

الحجر أخذه رسول الله بيده الشريفة ووضعه في مكانه ، فثبتوه بالبناء .

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة ذكر الرسول ﷺ لبناء قريش الذي اشترك فيه ، وها هي ذي بعضها :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما – رواية البخاري – : « لما بنت قريش الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة » .

وفي البخاري ومسلم – وهذه رواية مسلم – عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم ، فإن قريشاً حين بنت البيت استقصرت ، ولجعلت لها خلفاً » .

وحداثة العهد بالكفر : قربه ، وأما الاستقصار فهو الاقتصار على ذلك القدر من البناء لقصور في النفقة عن تمامه ، ولجعلت لها خلفاً ؛ أي باباً .

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « ألم تَرَيْ أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم » قالت : فقلت : يا رسول الله ، أفلا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لولا حِدْثان قومك بالكفر لفعلتُ » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية (أو قال : بكفر) لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها من الحِجْر » .

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما يقول : حدثتني خالتي – يعني عائشة – قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة ، فألزقتها بالأرض ، وجعلت لها

بابين : باباً شرقياً ، وباباً غربياً ، وزدت فيها ستة أذرع من الحِجْر ، فإن قريشاً اقتصرتها حين بنت الكعبة » .

فبناء قريش الكعبة ثابت ثبوتاً قاطعاً لا خلاف فيه ، وكانت أمنية الرسول ﷺ أن يعيد بناء الكعبة كما بين لولا أن قريشاً كانوا حديثي عهد بكفر .

* * *

وكان عبد الله بن الزبير على علم حق بأمنية الرسول ﷺ ، ولكن ، ليس له من الأمر شيء حتى يحقق تلك الأمنية .

ويشاء الله لابن الزبير أن يحقق الأمنية التي كانت أمنيته أن يحققها ، وذلك عندما ضرب أهل الشام الكعبة بالمجانيق والعرادات والنار والنفط – كما مر في فصل سابق – حتى وهت الكعبة ، وذلك في عهد يزيد ابن معاوية الأموي .

وأجمعت الروايات على إحراق أهل الشام الكعبة فذكر الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » وغيره : « أحرق أهل الشام الكعبة ورموها بالمنجنيق وهدمت الكعبة » وكان ذلك سنة ٦٤ هـ » .

وفي صحيح الإمام مسلم عن عطاء قال : « لما احترق البيت في زمن يزيد بن معاوية حين غزاه أهل الشام فكان من أمره ما كان تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم ، يريد أن يجرئهم ويحزبهم على أهل الشام ، فلما صدر الناس قال : يا أيها الناس ، اشيروا عليّ في الكعبة ، أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهى منها ؟ .

« قال ابن عباس : فإني قد فرق لي رأي فيها ، أرى أن تصلح ما وهى منها وتدع بيتاً أسلم الناس عليه ، وأحجاراً أسلم الناس عليها ، وبعث عليها النبي ﷺ .

« فقال ابن الزبير : لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يُجَدِّد ، فكيف بيت ربكم ؟ إني مستخير ربي ثلاثاً ثم عازم على أمري ! .

« فلما مضت الثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها ، فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء ، حتى صعده رجل فألقى منه حجارة ، فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض .

« فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه .

« وقال ابن الزبير : إني سمعت عائشة تقول : إن النبي ﷺ قال : « لولا الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقويني على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحِجْر خمسة أذرع ، ولجعلت فيه من الحِجْر خمسة أذرع ، ولجعلت له باباً يدخل الناس منه وباباً يخرجون منه » .

قال : فزاد فيه خمس أذرع من الحِجْر حتى أبدى أُسّاً نظر الناس إليه ، فبنى عليه البناء ، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً ، فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع ، وجعل له بابين : أحدهما يدخل منه ، والآخر يخرج منه » .

وعن مجاهد : أن ابن الزبير ارتقى جدار الكعبة هو نفسه وهدم . وعن أويس : وعزل ابن الزبير ما كان صالحاً يعاد إلى الكعبة ، وما كان غير صالح جمعه وحفر له حفرة في جوف الكعبة ووضعه فيها ودفنه .

واتبع ابن الزبير رضي الله عنه وجزاه خيراً قواعد إبراهيم من ناحية الحجر فلم يصب شيئاً حتى شق عليه ، وزادوا في الحفر قليلاً حتى أدركوا قواعد إبراهيم ، فنزل ابن الزبير ورآها وهي صخر مثل الخلف من الإبل ، وحركوا له تلك القواعد بالعتل فنفضت قواعد البيت ،

ورأى بنياناً مربوطاً بعضه ببعض ، فحمد الله وكبَّر ، وأحضر الناس فأمر بوجوههم وأشرافهم فنزلوا وشاهدوا ما شاهد ، ورأوا بنياناً متصلاً ، فأشهدهم على ذلك .

وتم بناء الكعبة على قواعد الخليل إبراهيم ، وكان بناءً محكماً ، أنفق فيه ابن الزبير بسخاء وأريحية .

وكان بدء البناء في منتصف جمادى الآخرة سنة ٦٤ هـ وقيل : في شهر رجب سنة ٦٤ هـ .

وأما الفراغ من بناء الكعبة فقد كان في السابع عشر من شهر رجب سنة ٦٥ هـ .

وبناء عبد الله بن الزبير هو البناء الصحيح على قواعد إبراهيم عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه ، ولم يسبق لأحد أن بنى بناءه ، كما لم يأت لاحق .

وكان سرور ابن الزبير وأهل مكة والمسلمين عظيماً : فقد خرج ابن الزبير إلى التنعيم ماشياً واعتمر كما اعتمر أهل مكة ، ونحر ابن الزبير والمكيون البُدْن شكراً لله على ما أنعم وأكرم .

وولي الخلافة عبد الملك بن مروان الأموي ، فبعث الحجاج بن يوسف الثقفي في جيش من أهل الشام إلى مكة ليحاربوا ابن الزبير ، ونصب الحجاج المنجنيق على جبل أبي قبيس المطل على الكعبة ، وطفق أهل الشام يرمون الكعبة بالحجارة كما فعلوا من قبل في حياة يزيد .

ويذكر ابن الأثير في تاريخه « الكامل » طبعة المنيرية بمصر سنة ١٣٥٧ هـ ج ٤ ص ٢٣ : « ولما حصر الحجاج ابن الزبير نصب المنجنيق على أبي قبيس ورمى به الكعبة ، وكان عبد الملك ينكر ذلك أيام يزيد ابن معاوية ، ثم أمر به ، فكان الناس يقولون : « خذل في دينه » .

ويقول ابن الأثير : « وأول ما رمى بالمنجنيق إلى الكعبة أرعدت السماء وأبرقت ، وعلا صوت الرعد على الحجارة فأعظم ذلك أهل الشام وأمسكوا أيديهم ، فأخذ الحجاج حجارة المنجنيق بيده فوضعها فيها ورمى بها معهم ، فلما أصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً ، فانكسر أهل الشام » .

وانهالت الحجارة على الكعبة المعظمة المشرفة من أهل الشام ، وكانت تصيب مع الكعبة المصلين والطائفين والركع السجود .

وهكذا كانت الكعبة بيت الله هدف قذائف الحجاج وأهل الشام ، وما أبشع هذا الانتهاك لحرمة الكعبة من فسقة فجرة يدعون الإسلام ، حتى إذا استشهد ابن الزبير في يوم ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ على أيدي هؤلاء الظالمين ، واستتب لهم الأمر كتبوا إلى الخليفة الظالم عبد الملك ابن مروان الذي أمرهم بضرب الكعبة يبشرونه بانتصارهم .

ولم يكفهم ما فعلوا ، بل أسرفوا في معاداة الكعبة إذ أمرهم عبد الملك ابن مروان بهدم جانب مقدس من الكعبة بحجة باطلة .

في صحيح مسلم في « باب نقض الكعبة وبنائها »[1] .

فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك ، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة ، فكتب إليه عبد الملك : إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء ، أما ما زاد في طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه ، وسد الباب الذي فتحه ، فنقضه وأعاده إلى بنائه » .

فعبد الملك بن مروان أصم سمعه عن الحق ، لأنه لم يجز الشهود

---

١ القسم الثاني من الجزء الأول صفحة ٥٩١ طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٧٧ هـ.

العدول من أهل مكة حرسها الله وحرس أهلها إلى يوم الدين ، وأمر أمراً ظالماً بإخراج ما أدخله ابن الزبير إيماناً منه بأحاديث رسول الله ﷺ ، فتولى عامله الظلوم تنفيذ ما أمر الظالم عبد الملك بن مروان ، وامتد عبثهم إلى بيت الله كأنه بيت أحد الناس .

وكلمة ابن مروان للحجاج : « تلطيخ ابن الزبير » بشعه ، فما كان ابن الزبير كما زعم ، وإنما صنع ما صنع من نقض البيت وبنائه تحقيق منه رضي الله عنه لرغبة النبي ﷺ .

وبلغ من استهتار عبد الملك وعزته الآثمة أن يقول في مجلسه بدمشق – وكان قد حضره الصحابي الجليل الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة – : « ما أظن أبا خبيب – يعني ابن الزبير – سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها ، قال الحارث : بلى ، أنا سمعته منها ! قال : سمعتها تقول ماذا ؟ قال : قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن قومك استقصروا من بنيان البيت ، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه ، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأُرِيَكِ ما تركوا منه » فأراها قريباً من سبعه أذرع [1] » .

قال عبد الملك للحارث : أنت سمعتها تقول هذا ؟ قال : نعم ، قال : فنكت ساعة بعصاه ثم قال : وددت أني تركته وما تحمل .

وفي صحيح مسلم عن أبي قزعة أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين يقول : سمعتها تقول : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت البيت حتى أزيد فيه من الحِجْر ، فإن قومك قصروا في البناء » فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة : لا

---

١ صحيح مسلم ، باب نقض الكعبة وبنائها .

تقل هذا يا أمير المؤمنين ، فأنا سمعت أم المؤمنين تحدث هذا ، قال : لو كنت سمعت قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير ! .

هذه الأحاديث التي رواها الإمام مسلم تدل على سوء النية لدى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، فقد دفعه حقده على ابن الزبير أن يتهمه بالكذب فيما روى عن خالته أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، ويصر على التكذيب في غير مجلس ، فهو قد علم من رسالة الحجاج عامله وتابعه أن ابن الزبير انتهى إلى أسّ — أي أساس إبراهيم — فوضع عليه البناء ، ووقف عليه العدول من أهل مكة .

فعدول عبد الملك بن مروان من هذا الحق إلى باطله الذي نفذه عمل سيء يضاف إليه التطاول وهو بين يدي الله في المطاف على ابن الزبير والدعاء عليه وتكذيبه في الصدق المجمع عليه إذ قال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين .

وهذه جناية ، فهو يذكر الحديث الذي رواه عن أم المؤمنين ، ويعلم أنه حديث صحيح ، لأن رسالة تابعه الحجاج تدل عليه ، ولأن الحارث ابن عبد الله شهد شهادة قاطعة بسماعه حديث عائشة .

ومعروف أن لابن الزبير كنيتين هما : أبوبكر وأبو خبيب ، الأولى للتكريم ، والأخرى للذم .

وأمْرُ عبد الملك بإخراج ما أدخله ابن الزبير رضي الله عنه ظلمٌ ، لأن ابن الزبير عمل ما كان الرسول ﷺ يريد أن يعمله لولا أن القوم حديثو عهد بشرك ولولا قصور النفقة ، وعمل ابن الزبير حق ، لأن الحِجْر من الكعبة المشرفة ، ولما اعيد بناء الكعبة بعد ابراهيم من قِبَل قريش بقي الحجر خارج بناء الكعبة ، لأن النفقة قصرت بقريش ، فكان الناس يطوفون من وراء الحجر المحسوب من الكعبة .

ولما اعتمر رسول الله ﷺ عمراته وحج حجة وداعه كان كل أطوفته من خارج الحجر ، والمسلمون مأمورون أن يأخذوا مناسكهم من رسول ﷺ الذي قال لهم : « خذوا عني مناسككم » فأخذوها عنه .

وإدخال ابن الزبير رضي الله عنه الحِجْر في الكعبة حق ، لأنه منها ، ويزداد الحق قوة أن رسول الله ﷺ كان يريد إدخاله في الكعبة محدداً الأذرع التي يجب دخولها فيها لولا الأسباب التي ذكرها لأم المؤمنين ، وأراها ذلك ، فصدق ابن الزبير رسول الله ، وعمل ما كان يريد رسول الله عمله ، فعمل ابن الزبير حق من حق من حق .

وكثير من المسلمين يطوفون بالبنية القائمة على فهم أنها هي كل الكعبة ، ولا يعرفون الحجر ، فيطوفون بهذه البنية المكسوة من داخل الحجر ، وهو ليس طوافاً شرعياً ، لأن الطواف الشرعي الحق من وراء الحجر حتى يشمل الطواف الحجر والبنية المكسوة القائمة ، فمساحة الكعبة هي ما قام عليه البناء والحجر .

وأنا رأيت في كثير من المرات حجاجاً يطوفون بالبنية القائمة يدورون بها تاركين الحجر ، فأرشدهم فيعيدون الأشواط أو الطواف .

وعمل ابن الزبير حق كله ، فإخراج الحجر ليس من الحق ، وإذا كان عمل قريش بعدم إدخاله في الكعبة بسبب العوز عذراً لهم فإن عمل عبد الملك خروج على الحق ، لأنه هدم من البيت الحرام من الكعبة المعظمة المشرفة جانباً كبيراً منها وسواه بالأرض فأوقع بعض الطائفين في الخطأ .

وهذا العمل من عبد الملك خروج على الحق الظاهر الثابت ثبوتاً قاطعاً بالإجماع الذي لا خلاف فيه .

وعمل الحجاج في الكعبة تنفيذاً لأمر عبد الملك لا يعد بناء ، لأنه هدم .

وبقي ما بناه ابن الزبير وهو بيت الله الحرام الذي أقامه على قواعد إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ومن جاءوا بعده ممن عمروا الكعبة كان تعميرهم على أساس ابن الزبير رضي الله عنهما .

وقد أراد هارون الرشيد – وقيل : أبوه – أن يعيد إضافة الحِجْر إلى الكعبة كما عمل ابن الزبير ، إلا أن مناشدة الإمام مالك رحمه الله أن يترك الكعبة على حالها لئلا تتخذه الملوك ملعبة جعلت الرشيد يترك ما كان أراده .

وحبذا إعادة بناء الكعبة على ما بناه ابن الزبير ، فيضم إليها ما أخرجه منها عبد الملك بن مروان ، ففي ذلك تحقيق لأمر كان يريده رسول الله ﷺ ، وإرادته حق وخير ، وقول الإمام مالك اجتهاد خير منه إرادة رسول الله ﷺ .

* * *

في صباح يوم الأربعاء التاسع عشر من شعبان سنة ١٠٣٩ هـ هطلت على مكة حرسها الله أمطار جدٌّ غزيرة مصحوبة ببَرَد ، واستمر هطولها إلى ليلة الخميس ، وشهدت مكة سيلاً عظيماً دخل المسجد الحرام ، ودخل الكعبة نفسها من بابها العالي ، ودخل دور مكة ، وذهب ضحيته مئات الناس قدرها بعضهم بألف إنسان ، وبلغت خسائر الأهلين فوق الحصر .

وبعد صلاة العصر من يوم الخميس ٢٠ شعبان ١٠٣٩ هـ انهار الجدار الشمالي وبعض الجدار الشرقي والجدار الغربي من الكعبة ، فأصاب أهل مكة هم وغم وقلق لا حد له .

وأسرع شريف مكة وسادن الكعبة والفقهاء والعلماء والقضاة والمفتون وأعيان أهل مكة ورأوا ما حدث ، فرأوا استخراج ما كان في جوف الكعبة من قناديـــل – وهي من ذهب – وغيرها والميزاب الذهبي ، ووضعوا كل ذلك في حرز مكين .

وتولى أهل مكة تنظيف المسجد الحرام ، وجمعوا حجارة الكعبة في مكان بالمسجد ، كما نظفوا جوفها من الحجارة التي انهارت به وجمعوها في جانب .

وقرر أهل الحل والعقد بمكـــة أن يكتبوا لخليفـة المسلمين – وكان حينئذ – السلطان مراد خان الرابع [1] ، وكتبوا له كتاباً مصحوباً بفتوى العلماء ومحضر بما وقع ، وبعثوا إليه بعثة منهم .

ورأوا أن يقيموا للطائفين البيت ، فأقاموه من خشب حتى يبدأ العمل في البناء تأسياً بما صنع عبد الله بن الزبير عند ما بنى الكعبة سنة ٦٤ هـ ، وانتهوا من البناء الخشبي يوم ٢٣ شوال ١٠٣٩ هـ .

وعلم بالحادث والي مصر محمد علي باشا الألباني فبادر بإرسال مندوب عنه خوله العمل بسرعة لاتخاذ ما يجب ، ووصل مكـة يوم ١٦ شوال ١٠٣٩ هـ وقابل في اليوم الثاني المسئولين بمكة والحرم .

وأعدوا العدة لما يمكن أن يتم حتى لا يقف الحج ، ووضعوا الخطة ، وتم الحج وطاف الطائفون بالبناء الخشبي الذي كساه شريف مكة بالديباج

---

١ ولد السلطان مراد خان الرابـع سنة ١٠١٨ هـ وجلس على كرسي الخلافة سنة ١٠٣٢ هـ وتوفي سنة ١٠٤٩ هـ وسبقه ثلاثة خلفـاء يحمل كل منهم اسم مراد ، ولما كان هو الرابـع وصف بـه .

الأخضر ، وكان الحجر الأسود بموضعه ، يستلمه الطائفون ، وإن كانوا يعلمون أن بناء الكعبة لم يبدأ به بعدُ .

وطبيعي أن يهتم السلطان مراد خان بأمر بناء الكعبة ، وقد جاء في كتاب « مرآة الحرمين » تأليف اللواء محمد رفعت باشا ١ / ٢٧٥ :

« وفي سنة ١٠٣٩ هـ نزلت أمطار كثيرة عمت مكة وحاراتها ، وعلت المياه عن قفل باب الكعبة بذراعين حتى إذا ما مضى يومان انهدمت دفعة واحدة ما عدا الجهة اليمانية فجددها السلطان مراد خان الرابع ، وقد أرسل مندوبين من الآستانة ومهندسين من مصر أقاموا بناءها ، وراعوا تجديدها سنة ١٠٤٠ هـ وقد بذل في سبيل ذلك المال الكثير » .

وكان وصول المشرف على عمارة الكعبة من قبل دار الخلافة إلى مكة يوم الأحد السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٠٤٠ هـ وكان وصوله إلى جدة بحراً ، وفي يوم الثلاثاء ١٨ ربيع الآخر سنة ١٠٤٠ هـ وصلت الباخرة التي تحمل أدوات البناء ، ونقلت إلى مكة .

ورأى علماء مكة وآل الشيبي سدنة الكعبة وشريف مكة والمشرف على عمارة الكعبة أن يضعوا على الكعبة سياجاً من جميع جهاتها يفصل بين العمال والطائفين ، وحتى لا يعرقل الناس العمل ، وعملوا « سقايل » لتيسيره .

وقد صنع النجارون المكيون هذا السياج من الخشب وأحسنوا صنعه ، وانتظروا مندوب السلطان فوصل مكة يوم الخميس ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٠٤٠ هـ واطلع على ما قرروا ، وكان معهم مندوب والي مصر الذي كان حضوره يوم ١٦ شوال ١٠٣٩ هـ والذي اشترك منذ وصوله في العمل .

وفي يوم الاثنين ٢٧ ربيع الآخر هطلت على مكة أمطار نجم عنها سقوط حجر كبير من الجدار الغربي مع بعض الأحجار الصغيرة ، فاضطر المهندسون من مكة ومن مصر والمشرفون إلى إعادة النظر ، ووكل أمر بناء الكعبة إلى ثلاثة مهندسين مكيين هم : علي بن شمس الدين ، ومحمد زين الدين ، وأخوه عبد الرحمن زين الدين ، وكتب القاضي عليهم محضراً بذلك .

واشترك معهم وتحت رئاستهم مهندسون من مصر ، وشرعوا في العمل بعد أن أعدوا كل ما يحتاج إليه بناء الكعبة في نهاية جمادى الأولى سنة ١٠٤٠ هـ .

وبذل كلٌّ في نطاق اختصاصه النكيثة [١] في عمارة الكعبة حتى انتهوا من كل شيء في اليوم الثاني من ذي الحجة سنة ١٠٤٠ هـ .

ويظهر أن المشرفين على العمل والقائمين به كانوا مقررين إنجازه في أواخر شهر رمضان سنة ١٠٤٠ هـ ولكن جدَّ فيه ما أخرهم شهرين تقريباً ، وقد أعدت لوحة من المرمر كتبوا فيها حفراً : تقرب بتجديد هذا البيت خادم الحرمين السلطان مراد خان في أواخر شهر رمضان المبارك سنة ١٠٤٠ هـ ولكن جدَّ في الأمر ما أخرهم شهرين تقريباً عن الموعد .

* * *

وعندما كانت الحكومة العربية السعودية تقوم بأكبر عمارة شهدها تاريخ المسجد الحرام – وذلك سنة ١٣٧٥ هـ – رأى المشرفون على العمارة

---

١ النكيثة : أقصى الجهد .

خللاً في سقف الكعبة وتصدعاً في بعض جدرانـــه ، فأمر الملك سعود ابن عبد العزيز بإصلاح كل ذلك . ووكل الأمر إلى الملك فيصل الذي كان حينئذ ولياً للعهد .

وفي صباح يوم الجمعة ١٨ رجب سنة ١٣٧٧ هـ بدأ العمل في احتفال مهيب برئاســة الملك فيصل ، وحضره ممثلو الدول العربية والإسلاميــة وشاركوا في العمل ، فحمل الملك فيصل والحاضرون الطـــين والحجارة وعملوا مع آلاف المتطوعين من أهل مكة والزوار والعمار .

وفي يوم السبت ١١ شعبان ١٣٧٧ هـ حضر الملك سعود بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية حفل ختام عمارة الكعبة ، ووضع بيده آخر حجر من الرخام في داخل الكعبة بحضور وفود الدول العربية والإسلامية وممثليها بالمملكة إيذاناً بانتهاء عمارة الكعبة المشرفة .

ولم تكن هـــذه العمارة إلا للسقف الأعلى الذي أزيل وعمل غيره ، وترميم ما تصدع من جدار الكعبة ، وترميم الكسوة الرخامية الداخلية ، بتثبيت ما يحتاج إلى التثبيت ، وتغيير ما تآكل من الخشب أو تلف .

هذه هي المرات التي بنيت فيها الكعبة ، وخير بنائها على الإطلاق بعد بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بنـاء عبد الله بن الزبير ، لأنه نقض ما تبقى من الكعبة بعد ضرب أهل الشام إياها بحجارة المنجنيق وقذفها بالنار حتى انتهى إلى قواعد إبراهيم ، وبنى الكعبة بحيث شملت المساحة التي حددها إبراهيم وجدد تحديدها محمد عليهما الصلاة والسلام ، إذ أدخل ابن الزبير الحِجْر في الكعبة لأنه منها حسب مـــا جاء بـــه الوحي المقدس ، حتى كان بناء ابن الزبـــير على الحدود الإبراهيمية .

قداسة الكعبة

لقد دالت دولة التوحيد في مكة ، فلم يَعُدْ بها غير الوثنية التي سيطرت عليها وبسطت سلطانها على الكعبة ، فانقلبت فرائض التوحيد وشعائره إلى فرائض وشعائر وثنية ، فالحج الذي كان منذ أذّن به إبراهيم في الناس حتى عهد عمرو بن لحي قد تغير ، فبعد أن كان الحج فريضة تؤدى مناسكها على سنة التوحيد أخذت تؤدى على سنة الشرك والوثنية .

وكذلك كانت الحال بالنسبة لجميع الفرائض والعبادات التي سيطرت عليها وأخرجتها من حمى التوحيد إلى الوثنية .

وانتصرت الوثنية انتصاراً مؤزراً مبيناً على التوحيد ، فأخذت الأوثان والأصنام مواضعها من الكعبة والحرم حتى دخلت إلى جوف الكعبة نفسها ، وازدحم جوفها بصور يهودية ومسيحية .

ولم تكن آلهة الوثنية التي أخذت مواضعها من الكعبة وجوفها ومن الحرم معبودة من جميع الناس ، ولا مقدسة لديهم ، بل كان كل فريق يقدس إلـهه أو آلهته ، واختلفت العبادات باختلاف الآلهة ، فلكل إلـه عُبَّاده وطقوس عباداته وفرائضه وشعائره ، واختلفت تلبية كل فريق عن تلبيات الآخرين ، فلكل فريق تلبيته . واختلفت عقائدهم وان كانت الوثنية تجمعها ، لأن هذه العقائد قد اختلفت باختلاف أصحابها ، حتى

الآلهة ، فلم يدن كل القبائل بإلـه واحد من هذه الآلهة تخصه بالتجلة والعبـادة .

وكانت في بلاد العرب كعبات ، كل كعبة لمن أقاموها ، وما يدين لها أحد غيرهم ، فهي كعبة خاصة بموجديها .

ولم تكن كعبة كل من لهم كعبة سابقة للعبادات التي تؤدى فيهـا ، بل كانت العبادات قائمة ثم أقيمت الكعبة أو بيت الصنم المعبود من قبل عباده لتكون موضع تلك العبادات .

وهذا نقيض الكعبة بمكة ، فقد أقيمت قبل وجود العبادات ، فلما تم بناؤها فرضت الفرائض التي تتفق مع بيت الله الواحد الأحد الذي لا شريك له ، وكانت كما قال الله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للنـاس الذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ .

فالبيت وضع قبل أن تحدد العبادة والفرائض التي يقتضيها وجود البيت وإن كانت العقيدة موجودة ، ولكن قيام البيت اقتضى فرائض خـاصة وعبادات مغايرة لكل ما كان موجوداً في عصر من بنى البيت .

فكعبة مكة وجدت من أجـل ديانة جديدة تكون هي وما سبقها ومـا سيأتي بعدها من ديانات تمهيداً لقيام الديانة الكبرى التي ستكون للناس جميعاً ، لأنها خاتمة الديانات .

وعندما أذن الله لإبراهيم ببناء بيته لم يكن في عهده هـدى للعالمين ، لأن كل رسول كان خاصاً بقومه ، فهو هدى لهم وليس هدى للعالمين ، فديانة إبراهيم خاصة بقومه ، ورسالة ابنه إسماعيل خاصة بقومه .

ولكن الكعبة بنيت لتكون مثابة للناس وأمناً على مر العصور ، وإن لم تظهر من أرضها رسالات ورسل بعد إسماعيل إلا الرسالة الكبرى التي تكون هدى للعالمين .

ولم يكن لله بيت يعبد فيه عبادة صحيحة قبله ، ولن يكون له بيت بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وبنى أناس بيوتاً حراماً يضاهون بها بيت مكة ، فلم يكن له شأنه ، بل كانت مقصورة على أهليها ، أما بيت مكة ورب بيت مكة فلم يكونا وقفاً على مكة وأهلها ، لأن بيت مكة هدى للعالمين ، وبديهي أن رب هذا البيت رب العالمين .

وقد تفرد بيت مكة دون كل البيوت الحرام المقامة بعده في بلاد العرب أو غيرها بالقداسة المعترف بها من قبل العرب ، فهم يفدون إليه من أجل شعائر وفرائض يؤدونها بين يديه ، أما البيوت الأخرى فكانت خاصة ، وبعضها أريد من إقامته صرف الناس عن بيت مكة ، مثل « القليس » البيت الحرام المقام بصنعاء ، أريد منه صرف اليمنيين عن الشخوص إلى بيت مكة ، ومع ذلك لم ينصرفوا إليه عنه ، بل كانوا يقصدون إلى بيت الله بمكة ، وكذلك كان يصنع غيرهم .

فبيت مكة متفرد ، واجتمع له من القداسة والتجلة ما لم يجتمع لكل البيوت المقامة متفرقة ومجتمعة ، وكان أهلها يشخصون الى بيت مكة وليس سواه ، عندما يريدون أداء فرائضهم الكبرى .

وآية تفرد بيت مكة أنه إذا أطلق لفظ بيت الله فلا ينطلق إلا إلى بيت مكة ، وإذا قيل رب البيت فهم العرب أن المقصود رب بيت مكة وليس سواه .

وليس لسائر البيوت الحرام هذا الاطلاق الدال على أن لبيت الله مكانة خاصة عند كل العرب ، فهم جميعاً يقدسونه تقديساً بعيداً عن السياسة والاقتصاد والتجارة ، وبعيداً عن الوثنية الخاصة ، فتقديس الكعبة خاص بها لنفسها ، وليس لأنها مجتمع للاوثان والأصنام المعبودة من قبائل العرب .

إن قداسة الكعبة لذاتها ، ولهذا كان الاجماع منعقداً على تقديسها من قبل العرب الذين اختلفوا في معتقداتهم وآلهتهم ، دون أن يحملهم هذا الاختلاف على قداسة الكعبة .

لقد اختلفوا في الشعائر والفرائض لاختلاف آلهتهم ، ولم يفرض أتباع أحد من هذه الآلهة على اتباع الإله الآخر فرائضه وشعائره ، بل تمسك كل فريق بفرائضه وشعائره وصنمه ، ولم يقبل من غيره أي فريضة يفرضها أو شعيرة يحمله عليها .

أما شعائر الكعبة وفرائضها فهم راضون بها ويؤدونها حسب ما يمليه سدنتها وحُمْسها .

فرضوا على أتباع الآلهة والبيت الحرام الأخرى أن يطوفوا بالكعبة عراة أو يستعيروا من أهل مكة ملابسهم الطاهرة فرضوا بما فرضوا ، فطافوا رجالاً ونساء عراة .

وفرضوا عليهم أن يحجوا ويصعدوا إلى عرفات وبقية مناسك الحج فسمعوا وأطاعوا .

وكلهم يقولون : لبيك اللهم لبيك ، فالتلبية لرب الكعبة . وفرضوا عليهم الايمان به فآمنوا به ، وهكذا فرض أهل الكعبة فرائضهم وشعائرهم دون أن يكون هذا الفرض لأصحاب أي صنم أو بيت ، لأنهم مؤمنون أن آلهتهم وبيوتهم محلية خاصة ، أما رب الكعبة فهو رب الأرباب ، وبيته هو البيت الفاذُّ الأهل لكل ضروب القداسة والتجلة والاحترام .

ومن هنا كانت « عمومية » الكعبة بالنسبة للعرب الذين دانوا لها بالإجماع ، ولم يجتمعوا على شيء مثل اجتماعهم على تقديس الكعبة حتى غدت عربية .

ووجود الكعبة هو الذي جمع العرب وهيأهم ليحملوا رسالة محمد

عليه الصلاة والسلام إلى العالم ، ومهد لهذا الحمل بأن جمعتهم الكعبة فكانت للعرب قومية تقف مع القوميات الأخرى التى تثبتها قوة الحكم والسياسة .

ولم تكن للعرب قومية مبنية على القوة العسكرية كالقوميات الأخرى، وإنما بنيت على وجود الكعبة واللغة .

وتفرد الكعبة بهذه القداسة يثبت أنها بيت الله الحرام بحق ، وما عداه ليس ببيت الله ، وإنما هو بيت صنم ، ولهذا لم يكن لبيت من القداسة لدى العرب غير الكعبة وحدها .

واجماع العرب على قداسة الكعبة هو الذي حملهم على أن يحملوا إلى العالم الرسالة الخالدة الكبرى التي اختار الله لها النبي الهاشمي القرشي المكي الحجازي محمداً عليه صلوات الله وسلامه .

أول حج للكعبة
حج ابراهيم واسماعيل

بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلى رسول الله محمد صلاة الله وسلامه الكعبة البيت الحرام فكان أول بيت لله على ظهر هذه الأرض يعبد فيه العبادة الصحيحة وأمر بالحج فحجه كما مر في بعض ما سبق من فصول هذا الكتاب .

ولما كان أمر الله لإبراهيم ببناء البيت ومعه ابنه اسماعيل ، وجعله الله مثابة للناس ومحجة وأمناً فقد أمر الله ابراهيم كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلِّ ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ .

فإبراهيم أول من حج بيت الله ، وأدى مناسكه كما تؤديها أمة محمد عليها الصلاة والسلام ، وقد تولى جبريل عليه السلام إرشاد إبراهيم ، فالحج فريضة فرضها الله ، ومناسكه وحي منه سبحانه وتعالى ، وفريضته منذ فرضت عامة إلى يوم الدين ، وإن كان أمر الله لإبراهيم ﴿وأذِّن في الناس بالحج﴾ قد جدده الله جل جلاله عندما جعل أركان الإسلام، دين محمد عليه الصلاة والسلام، خمسة منها : حج البيت ، وقال في محكم

كتابه : ﴿ ولله على الناس حِجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ فكان هذا الفرض خاصاً بأمة محمد ﷺ تجديد للأمر الإلهي العظيم لإبراهيم .

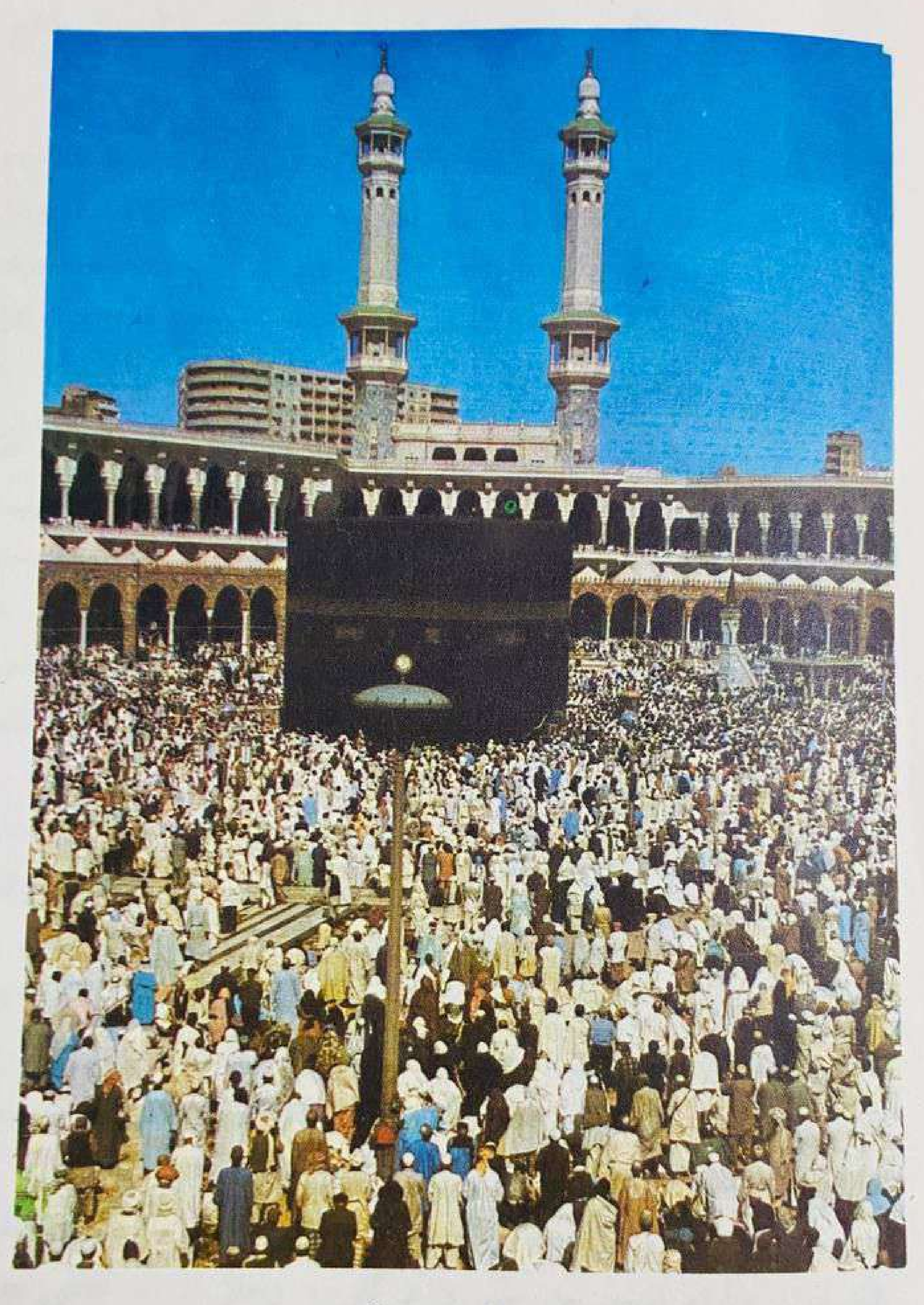
ومناسك حج أمة محمد هي مناسك حج إبراهيم ، وقد أوضح رسول الله محمد لأمته هذه الحقيقة التي تثبت صدقه الدائم فقال[1] : « أتى جبريل إبراهيم يوم التروية[2] فراح به إلى منى فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر بمنى ، ثم غدا به إلى عرفات فأنزله الأراك – أو حيث ينزل الناس – فصلى به الصلاتين جميعاً : الظهر والعصر ، ثم وقف به حتى إذا كان كأعجل ما يصلى أحد من الناس المغرب أفاض أتى به جَمْعاً[3] فصلى به الصلاتين جميعاً : المغرب والعشاء ، ثم أقام حتى إذا كان كأعجل ما يصلى أحد من الناس الفجر صلى به ، ثم وقف حتى إذا كان كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين الفجر أفاض به إلى منى ، فرمى الجمرة ، ثم ذبح وحلق ، ثم أفاض إلى البيت ، ثم أوحى الله عز وجل الى محمد ﷺ : ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[4] .

فالحديث الشريف قد أوضح الحج بكل مناسكه التي وردتنا عن الرسول ﷺ ، ومنها الميقات الزمني وهو أن الحج الذي هو الوقوف بعرفة هو يوم التاسع يوم ما بعد يوم التروية الذي هو ثامن شهر الحج ذي الحجة .

وجاءت في أحاديث التلبية التي لباها إبراهيم ، فالحج ومناسكه وحي

---

١ تاريخ الإمام الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، طبعة دار المعارف جـ ١ ص ٢٦٢ .
٢ يوم التروية : يوم الثامن من شهر ذي الحجة ، وهو اليوم الذي يسبق يوم الوقوف بعرفة ، وهو يوم التاسع من ذي الحجة .
٣ جمع (بفتح الميم وإسكان الجيم) : مزدلفة .
٤ سوره النحل : ١٢٣ .



المسجد الحرام والكعبة

ومئات الالوف من المصلين

الله نزل به الروح الأمين جبريل على إبراهيم وراح معه يدله على الحج ومناسكه حتى ينتهي منه .

والحديث الشريف الذي استشهدنا به يدل عـلى أن أول حج حجه إبراهيم كان وحده ، لأنه لم يأت فيه التصريح بأن غيره كان معه ، ومن الجائز أن حج إبراهيم أول حج له كـان وحده ، ثم حج حجة أخرى ومعـه المسلمون ، فقد جاء في حديث عبد الله بن الزبير قال لعبيد بن عمير الليثي : كيف بلغك أن إبراهيم دعا إلى الحج ؟ قال :

« بلغني أنه لما رفع هو وإسماعيل قواعد البيت وانتهى إلى ما أراد الله من ذلك وحضر الحج استقبل اليمن فدعا إلى الله وإلى حج بيته فأجيب: أنْ لبيك اللهم لبيك ، ثم إلى المغرب فدعا إلى الله عز وجل وإلى حج بيته فأجيب: أنْ لبيك اللهم لبيك ، ثم استقبل المشرق فدعا إلى الله عز وجل وإلى حج بيته فأجيب : أن لبيك اللهم لبيك ، ثم خرج بإسماعيل وهو معه يوم التروية فنزل به منى ومن معه من المسلمين فصلى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة ، ثم بات بهـم حتى أصبح فصلى بهم صلاة الفجر ، ثم غـدا بهم إلى عرفة فقال بهم هناك حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين : الظهر والعصر ، ثم راح بهم إلى الموقف من عرفة فوقف بهم على الأراك وهو الموقف من عرفة الذي يقف بـه الإمام يريه ويعلمه ، فلما غربت الشمس دفع به وبمن معـه حتى المزدلفة فجمع فيها بين الصلاتين : المغرب والعشاء الآخرة ، ثم بات بها وبمن معه ، حتى إذا طلع الفجر صلى بهم صلاة الغداة ، ثم وقف به عـلى قُزَحَ من المزدلفة فيمن معه ، وهو الموقف الذي يقف به الإمام حتى إذا أسفر دفع به وبمن معـه يريه ويعلمه كيف يصنع حتى رمي الجمرة الكبرى ، وأراه المنحر من منى ، ثم نحر ، وحلق ، ثم أفاض به من منى ليريه كيف يطوف ، ثم عاد به إلى منى ليريه كيف يرمي الجمار حتى

فرغ له من الحج وأذن به في الناس[1] » .

وهذا هو تأذين إبراهيم بالحج ، وقد ذكر الطبري في تفسير آية ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لما فرغ إبراهيم من بنـاء البيت قيل له : أذن في الناس بالحج ، قال : رب ، وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذِّنْ وعليَّ البلاغ ، فنادى إبراهيم: أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فحجوا ، قال : فسمعه مـا بين السماء والأرض ، أفلا ترى الناس يجيئون من أقصى الأرض يلبون[2] » .

وعن مجاهد قال : « قيل لإبراهيم : أذن في الناس بالحج ، قال : يا رب ، كيف أقول ؟ قال : قل لبيك اللهم لبيك ، قال : فكانت أول التلبية » .

وقد مر في حديث رسول الله ﷺ أن سيدنا إبراهيم حلق ونحر ، والقصد بالنحر نحر هديه ، ومفهوم أنه نحر هديه وهو ما يذبح من النعم ، وكان النحر سنة إبراهيم ، وكـان قبله وفي عهده ينحر الناس أبناءهم تقرباً إلى الله عز وجل ، وكان إبراهيم يريد أن ينحر ابنه اسماعيل حتى فداه الله بِذِبْح عظيم عوضاً عن ابنه .

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الصافات ١٠٢ ــ ١٠٧ : ﴿ فلما بلغ معه السعيَ قال يا بنيَّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر مـاذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلَّه للجبن . وناديناه أنْ يا إبراهيم . قد صدَّقْت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إنَّ هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بِذِبْح عظيم ﴾ .

---

١ تاريخ الطبري : ٢٦١/١ ــ ٢٦٢ .

٢ تفسير الطبري : ١٠٦/١٧ طبع مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٣٢٨ هـ .

فإبراهيم رأى أن يذبح ابنه تقرباً إلى الله ، وكانت القرابين البشرية معروفة في عهده وقبله ، وقد استجاب لأمر الله طائعاً كما استجاب له ابنه ، حتى إذا هيأه للذبح فداه بكبش فذبحه .

وهذا الذي حدث نقلة دينية وإنسانية وحضارية لم تكن معروفة في التاريخ البشري قبل إبراهيم ، فقد ارتفع بالضحية إلى مرتبة الإنسانية عندما تم بفضل الله ورحمته استبدال الحيوان بالإنسان ، بعد أن كانت الضحية بالإنسان هابطة إلى مرتبة الحيوانية .

وكل سنن سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كانت ميراث الاسلام بعد أن أضيف إليه ما يتفق مع الدين الذي كان خاتم الأديان فصار الحج ركناً تجتمع فيه كل أركان الإسلام الأخر .

ومنّ الله سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم فجعله للناس إماماً ، ولما أخبره بهذه المنة الآلهية رجا إبراهيم أن تكون هذه الإمامة لذريته فقبل الله رجاءه ودعاءه واستثنى الظالمين من ذريته عن هذه الرسالة التي لا يستحقها إلا الصالحون .

وكان إسماعيل أهلاً لهذه الإمامة والرسالة لأن الله اصطفاه لذلك وهو طفل رضيع عندما أخبر الملَك أمه أن هذا الطفل وأباه يبنيان بيت الله .

وطبيعي أن يحج إسماعيل بالناس بعد عودة أبيه إلى فلسطين ، فقد صار الحج فريضة دينية يؤديها الناس منذ تأذين إبراهيم به لم ينقطع إلى يومنا هذا وإلى أبد الأبد كما أخبر خاتم رسل الله محمد عليه الصلاة والسلام.

وآمن بقداسة الكعبة وحرمتها وحرمة مكة،حرسها الله وحرس أهلها، العربُ وغير العرب ، ومن أعظم آيات هذه القداسة حج الكعبة ، فكانوا يحجونها كل عام في ميقات الحج الزماني تحت إمامة إسماعيل على أبيه ونبينا الصلاة والسلام ، فلما مات إسماعيل انتقلت الإمامة إلى أولاده

حتى انتقلت الإمامة إلى أخوالهم من جرهم دون نزاع من أولاد إسماعيل احتراماً للكعبة ومكة ، وتنزهاً عن نقض حرمتهما بقتال في رحابهما .

وكان الحج في أيام ولاية أولاد إسماعيل ثم ولاية جرهم زمناً حتى استردها منهم من كانوا من ذرية أولاد إسماعيل حتى انتقلت منهم لخزاعة على سنة إبراهيم لم يدخل فيه شيء من الوثنية والشرك ، حتى إذا تولى حكم مكة والكعبة عمرو بن لحي الخزاعي انحرف عن سنة التوحيد إلى الشرك ، وغيّر ملة إبراهيم ، واستبدل بها الوثنية .

الحج في الجاهلية وتلبياتها

كان الحج منذ تأذين إبراهيم عبادة مبرأة من الشرك والوثنية،وكذلك كان في خلفه من بني إسماعيل وأخوالهم حتّى انتقلت ولاية مكة وإمامة الكعبة المشرفة إلى خزاعة ، ولم يخرج أحـــد عن سنة إبراهيم في الحج بخاصة والمعتقد بعامة ، فقد كانوا جميعاً موحدين لا يشركون بالله أحداً من خلقه ، فلما وليت خزاعة كان التوحيد معتقد الجميع .

وأول من ولي من خزاعة أمر مكة والكعبة عمرو بن لحي ، ويظهر أن عقيدة التوحيد قد أصابها شيء من الوهن ، وكان جو العبادة العام مهيئاً لما سيحدث من الزيغ .

ويجمع مؤرخو العرب على أن أول من أدخل إلى مكة عبادة الأصنام عمرو بن لحي ، فقد كان في رحلة استشفاء بالبلقاء من أرض الشام ، ورأى القوم يعبدون الأصنامَ فسألهم فأجابوه : أنها أربـــاب يعبدونها ، يستنصرونها فتنصرهم ، ويستمطرونها فتمطرهم .

فطلب إليهم صنماً من أربابهم هذه فأعطوه وكان هُبَـل ، وعاد به إلى مكة ووضعه بجوف الكعبة .

ويذكر مؤرخو العرب أن عمرو بن لحي كان ملكاً قوياً غنياً ، وقد

ذهب إلى الشام والعراق ، ووقف على دياناتهم الوثنية وعباداتهم الشركية، ورأى أن ينشيء ديناً وثنياً يستبدله بدين إبراهيم فيكون هو رائد ديانة جديدة ، فدعا إلى الوثنية وفرضها على الناس فرضاً ، وكانت قوته سنداً له في تمكين سلطانه وقبول رعاياه لدعوته الجديدة .

ولكن أناساً من المؤمنين الحنفاء الموحدين لم يرضوا بنحلته التي نقلها من عباد الأوثان في الشام إلى مكة .

يقول المسعودي في كتابه « مروج الذهب[1] » ٢٩/٢ — ٣٠ : « وَلِيتْ خزاعة أمر البيت وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحي — واسم لحي حارثة بن عامر — فغيَّر دين إبراهيم وبدَّله ، وبعث العرب على عبادة التماثيل لخبر قد ذكرناه في هذا الكتاب وغيره حين خرج إلى الشام ورأى قوماً يعبدون الأصنام ؛ فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة، وقويت خزاعة ، وعمَّ الناسَ ظلمُ عمرو بن لحي ، وفي ذلك يقول رجل من جرهم كان على دين الحنيفية :

يا عمرو لا تظلمْ بمكة إنها بلد حرامْ
سائل بعاد أين هم وكذاك تخترم الأنامْ
وبني العماليق الذين لهم بها كان السَّوامْ

ولما أكثر عمرو بن لحي من نصب الأصنام حول الكعبة وغلب على العرب عبادتها ، وانمحت الحنيفية منهم إلا لمعاً قال في ذلك شحنة ابن خلف الجرهمي :

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة ... شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبداً ... فقد جعلت له في الناس أربابا

---

١ طبعة دار الأندلس ببيروت سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) .

لتعرفن بأن الله في مهـل سيصطفى دونكم للبيت حجابا»

ولكن هذه الأصوات لم تجد سميعاً ، فقد ضاعت في صخب الوثنية الجديدة القوية التي غشيت مكة وأرض الحجاز فسادتهما .

ونحن وإن كنا لا نطمئن إلى نسبة هذا الشعر إلى قائليه لا يخامرنا شك في وجود هـذه الأصوات وقيام معارضين ، لأن الحنيفية كانت موجودة وإن لم تكن من القوة بحيث تقف في وجه هـذا الزحف الذي لا يقاوم ولا يغالب من قبل المعارضين والمستنكرين من أفراد ثبتوا على عقيدة التوحيد .

وتبع الوثنية التي فرضها ابن لحي على الحجاز ومكة تغيرٌ شامل في العقيدة وصنوف العبادات ، فلم يعد الحج عبادة توحيد ، بل انقلب إلى عبادة وثنية بجميع مناسكه وشعائره وتلبيته .

ونرى في تلبية خزاعة غروراً وتعالياً ينبثقان من السلطة التي تفردوا بها فبغوا وطغوا وقالوا :

نحن ورثنا البيت بعد عاد

وتوالت الأجيال والوثنية سائدة ، وبنو خزاعة هم الحكام حتى انتزع قصي بن كلاب – جد النبي وسيد قريش – الحكم من خزاعة ، وسن سنناً حسنة لحجاج بيت الله الحرام ، وعـادت ولاية الكعبة إلى ذرية اسماعيل بولاية قصي ، ولكن الوثنيـة كانت هي السائدة ، وإنما تغير نظام الحكم والسيادة في المجتمع المكي ، فزال الإرهاب الخزاعي وحل مكانه السلام والمودة بين الناس .

أما الحج فلم يتغير في نظـامه الديني شيء بعد أن انقلب عبادة وثنية منذ تولى عمرو بن لحي الخزاعي حكم مكة والحجاز وولاية الكعبـة ، وكان الناس يحجون إليها كل عام ، ومظاهر النسك من طواف وسعي

وصعود إلى عرفات ووقوف بمزدلفة وإقامة بمنى كانت تؤدى في طقوس وثنيـــة .

ومن السنن الحسنة التي سنها قصي – كما مر الذكر في فصل سابق من هذا الكتاب – الرفادة والحجابة والسقاية .

وكان العرب حنفـاء ومشركين يحجون ويعتمرون ويطوفون ويسعون ويعرفون التلبية ، وكانت لكل قبيلة تلبية خاصة بها ، ولكن العبادات انقلبت من التوحيد إلى الشرك والوثنية .

وكانت الكعبة المشرفة معروفة بالقبلة فى الجاهلية ، يقصدونها بوجوههم سواء أكانوا في الحرم أم كانوا بعيدين عنه ، وكان أبو سيارة عميلة بن خالد العدواني يتولى السماح للحجاج في الجاهلية بالخروج من المزدلفة إلى منى ، وقيل : إنه تولى ذلك أربعين سنة ، وقال فيه الشاعر :

خلوا الطريق عن أبي سياره
وعن مواليــه بني فــزاره
حتى يجيز سالمـاً حمـاره
مستقبل القبلـة يدعو جـاره
فقد أجــار الله من أجـاره

وبلغ من تقديس الجاهلية للكعبــة تقديساً يتفق مع وثنيتهم أن سنوا « قوانين » صارمة لدخول بيت الله والطواف به ، فما كان سدنة الحرم يجيزون للحجاج أن يطوفوا بالبيت بملابسهم التي انتقل إليها الإثم منهم، بل فرضوا عليهم أن يخلعوهـا ويرتدوا ملابس خاصة بالسدنة المعروفين بالحُمْس ، فإذا لم يجدوا وجب عليهم أن يطوفوا عراة ، ولم يستثنوا النساء ، بل فرضوا عليهن ما فرضوا على الرجال .

في « تاريخ مكة » للأزرقي ١ : ١١٤ – ١١٥ (طبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ هـ) :

« إذا حج الصرورة من غير الحمس – والحمس : أهل مكة قريش وكنانة وخزاعة ومن دان بدينهم ممن ولدوا من حلفائهم وإن كان من ساكني الحل – والأحْمَسي : المشدد في دينه ، فإذا حج الصرورة من غير الحمس رجلاً كان أو امرأة لا يطوف بالبيت الا عرياناً ، الصرورة أول ما يطوف يطوف في ثوب أحمسي إما عـارية وإما إجارة ، يقف أحدهم بباب المسجد فيقول : من يعير مصوناً ؟ من يعير ثوباً ؟ فإن أعاره أحمسي أو أكراه طاف به ، وأن لم يعره ألقى ثيابه بباب المسجد من خارج ثم دخل الطواف وهو عريان ، يبدأ بأساف فيستلمه ، ثم يستلم الركن الاسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ، ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعة استلم الركن ثم يستلم نائلة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس ، فيأخذها فيلبسها ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عرياناً .

« ولم يكن يطوف بالبيت عريـاناً الا الصرورة من غير الحمس ، فأما الحمس فكانت تطوف في ثيـابها ، فإن تكرم متكرم من رجل أو امرأة من غير الحمس ولم يجد ثياب أحمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها غير ثيابه التي عليه ، فطاف في ثيابه التي جـاء بها من الحل ، فإذا فرغ من طوافه نزع ثيابه ثم جعلها لقىً يطرحها بين أساف ونائلة فلا يمسها أحد ، ولا ينتفع بها حتى تبلى من وطء الاقدام ومن الشمس والرياح والمطر .

« وقال الشاعر يذكر ذلك اللقى :

كفى حزنـاً كرِّي عليه كأنه   لقى بين أيـدي الطائفين حريم

يقول : لا يمس ، فصار هـذا كله سنة فيهم ، وذلك من صنع

إبليس وتزيينه لهم ما يُلَبِّس عليهم من تغير الحنفية دين إبراهيم ، فجاءت امرأة يوماً -.وكان لها جمال وهيئة - فطلبت ثياباً عارية فلم تجد من يعيرها ، فلم تجد بداً من أن تطوف عريانة ، فوضعت يدها على فرجها وجعلت تقول :

اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه

فما بــدا منه فــلا أحلّه

قال : فجعل فتيان مكة ينظرون إليها » .

وها هي ذي تكملة قولها :

جهمٌ من الجهم عظيم ظلُّه

كم من لبيب عقله يضلُّه

وناظر ينظرُ ما يَمَلُّه

وتعري الانسان في الطواف دون تمييز بين المرأة والرجل له نظير في بعض الديانات التي جاء فيها العَهْر المقدس ، وان كان الاتصال محرماً في هذا المكان المقدس ، إلا أن تعرية المرأة جسدها تعد من العهر المقدس في العهد الجاهلي ، وهو حادث على الحنيفية دين إبراهيم .

ومناسك الحج ومشروعية الطواف وغير ذلك مــن العبادات كانت تُؤدّى في الجاهلية المعترفة بقداسة الكعبة وحرمة مكة .

ورسول الله ﷺ قد حج في الجــاهلية دون اتخاذ سبيل الحُمْس مع أنه منهم ، فوقف بعرفة وهم لا يقفون بها ، ولا يتجاوزون المزدلفة إلى عرفة ، أما الرسول فقد وقف بعرفة مثل سائر الحجاج ، وكانت حجته سليمة من الشرك والوثنية ، لأنها كانت على الحنيفية دين إبراهيم .

وتلبية الحج توارثها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل من عهد إبراهيم

حتى خرجت من سوائها إلى الشرك ، وها هي ذي تلبيات الجاهلية .

في كتـــاب « الأزمنة » للامام أبي علي محمد بن المستنير الشهير بقُطْرُب المتوفى سنة ٢٠٦ ﻫ (٨٢١ م) تفصيل لتلبية القبائل ، وهو غير مطبوع . ونحن ننقل من مخطوطة بخزانة كتبي حققتها منذ عشرين سنة ما تدعو الحاجة إلى ذكره .

ذكر قطرب أن تلبية جرهم – سكان البيت الحرام هي :

لبيك مرهوباً وقد خرجنا
والله لولا أنت ما حججنا
مكـة والبيت ولا عججنا
ولا تصدقنـا ولا ثججنا
ولا تمطينـا ولا رجعنا
ولا انتجعنا في قرى وصحنا
على قلاص مرهفات هُجنا
يقطعن سهلاً تارة وَحزْنا
أشرق كيما نثني في الدهنا
لكي نحج قابلاً ونعنـا
نحن بنو قحطان حيث كنا
ننحر عند المشعرين البدنا

وتلبية خزاعة :

ونحن مــن بعدهم أوتاد
نحن ورثنا البيت بعد عاد
فاغفر فأنت غافر وهــاد

وتلبية قريش :

لبيـــك اللهــم لبيــك
لبيـــك لا شريـــك لك
الا شريـــك هـــو لـــك
تملكـــه ومـــا ملـــك
أبـــو بنـــات في فـــدك

وتلبية كنانة :

لبيك اللهم لبيك يوم التعريف
يـــوم الدعـــاء والقوف
وذي صباح الدعاء من تجها والتريف

وتلبية ثقيف :

لبيـــك اللهـــم لبيـــك
هـــذه ثقيف قـــد أتوك
وخلفوا أوثانهـــم وعظموك
قد عظموا المـــال وقد رجوك
عُزّاهُمُ واللات في يديك
دانت لك الأصنام تعظيماً إليك
وأذعنت بسلمها إليـــك
فاغفر لها فطال ما غفرت

وتلبية هذيل :

لبيـــك اللهـــم لبيـــك
لبيـــك عـــن هذيـــل

ادلـجـت بـلـيـل
تعدو بها ركائب إبل وخيل
خلفت أوثانها في عرض الجبيل
وخلفوا من يحفظ الأصنام والطفيل
في جبل كأنه عارض مخيل
تهوى إلى رب كريم ماجد جميل

وتلبية الأنصار :

لبيـك حجـاً حقـا
تعبـداً ورقـا
جئنـاك للنصاحـه
ولـم نـأت للرقـاحـه[1]

وتلبية اليمن :

عـد إليـك عانيـه
عبادك اليمـانيـه
كـيما نحج ثـانيـه
عـلى قـلاص ناجيـه
أتينـاك للنصـاحـه
ولـم نـأت للرقاحـه

وتلبية حمير :

لبيـك اللهـم لبيـك
عن الملـوك الأقـوال

---

١ النصاحة : الاخلاص . والرقاحة : التجارة .

ذوي النهى والأحلام
والواصلين الأرحام
لا يقربون الآثام
تنزهاً واسلام
ذلوا لرب كُرّام[1]

وتلبية قيس :

لبيك أنت الرحمن
أتتك قيس عَيْلان
رجالها والركبان
بشيخها والولدان
مُذَلَّلَة للديان

وتلبية تميم :

تالله لولا أن بكراً دونك
ما زال منا عَثَجٌ يأتونك
بنو غفار وهُمُ يلونك
يبرُّك الناس ويفجرونك

وتلبية بني أسد :

لبيك اللهم لبيك
ربنا أقبلت بنو أسد
أهل الوفاء والنوال والجلَد

---

١ الكرام بضم الكاف وتشديد الراء : الكريم المفرط في كرمه .

فينا الندى والذدا والعدَد

والمال والبنون فينا والولَد

الواحد القهار والرب الصمَد

لا نعبد الأصنام حتى تجتهد

لـربهـا وتعـتبـد

لحجة لها الدماء وحجها حتى ترد

وتلبية ربيعة :

لبيـك اللهـم لبيـك

لـبيـك ربيـعـه

سـامعـة مطـيعـه

لرب ما يعبد في كنيسة وبيعه

ورب واصل أو مظهر قطيعه

وتلبية الأزد :

يا رب لولا أنت ما سعينا

بين الصفا والمروتين ذينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

ولا حللنا مع قريش أينا

البيت بيت الله ما حيينا

والله لولا الله ما اهتدينا

بحج هذا البيت ما بقينا

وتلبية عك ومذحج :

يا مكةُ الفاجر مكي مكا

ولا تمكي مذحجا وعكا

فيترك البيت الحرام دكـا

جئنا إلى ربـك لانشكـا

وتلبية كندة :

لبيك ما أرسى تبير وحده

وما أقام البحر فوق جُدّه

وما سقى صوب الغمام زَبْده

إن الذي تدعوك حقاً كنده

في رجب وقد شهدنا جهده

لا نرجـو نفعه ورفـده

هذه تلبية الجاهلية ، كلها تشير إلى ايمانهم بالله ؛ ولكنهم أشركوا معه غيره،وتثبت أنهم كانوا يصلون ويطوفون ويسعون ويذبحون ويحجون ، ولكن على طريقتهم الوثنية التي أفسدت ملة إبراهيم ، حتى أعـاد الله بالاسلام الحق فعاد التوحيد وحل محل الشرك والوثنية .

وأما تلبية الإسلام فقد جاء في الحديث الشريف أن تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم هي :

لبيـك ، اللهـم لبيـك

لبيك لا شريك لك لبيك

ان الحمد والنعمة لك والملك

لا شـريـك لـك

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يزيد فيها : لبيك ، لبيك وسعديك ، والخير بيديك ، لبيك والرغباء إليك والعمل .

ويستحب الفقهاء الاقتصار على تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان الجمهور لا يرى ما يمنع الزيادة عليها ، لأن بعض الصحابة زادوا ورسول الله يسمع ولا ينكر عليهم ، غـير أن الإمامين مالكاً وأبا يوسف يكرهان الزيادة .

ومن أعظم ما أراد الإسلام من الحج أن يقترن بأداء الفريضة تحقيق المنافع الخاصة والعامة بالنسبة للمسلمين ، ويكون مؤتمراً اسلامياً عـاماً تشترك فيه كل أقطـار المسلمين يتدارسون احوالهم ويعرضون مشاكلهم وقضاياهم ويضعون لها الحلول الصحيحة ، ويجددون عهودهم، ويوحدون كلمتهم وصفوفهم ، ويعملون ما فيه الخير لأمة الإسلام وللإنسانية .

حج الكعبة في الاسلام

فتح الله مكة لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ودخلها يوم العشرين من شهر رمضان المبارك سنة ثمــان من الهجرة (يناير سنة ٦٣٠ م) ولكنه لم يدخلها في كبرياء الفاتحين ، بل دخلها دخول العابدين الطائعين ، حتى أنه كان على ناقته خاضعاً ذليلاً لربه ، خافضاً رأسه حتى ليكاد يلمس رحلها وهو يتلو سورة الفتح حتى انتهى إلى الكعبة والمسلمون معه .

واستلم الرسول ﷺ الحجر الأسود بمحجنه وكبر ، فكبر المسلمون بتكبيره حتى ارتجت مكة ، ورددت جبالها صدى تكبيرهم ، وبلغ من ارتفاع أصواتهم أن رسول الله أشار لهم بأن يصمتوا ، وطاف بالكعبة سبعة أشواط تحية للمسجد الحرام .

ثم جلس بين يدي الكعبة وصديقه الأكبر أبو بكر قائم على رأسه ﷺ بالسيف ، ودعا سادن بيت الله الحرام عثمان بن طلحة وكان لديه مفتاح الكعبة ففتح بابها له ودخل وصلى بجوفهــا ركعتين ، ثم خرج ووقف على بابها وقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو موضوع تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقايـة الحج ، ألا وقتيل الخطأ شبه

العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مئة من الإبل : أربعون منها في بطونها أولادها . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتَعَظُّمَها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ .

« يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وكانت الكعبة محوطة بثلاثمئة وستين صنماً ، فجعل رسول الله يطعنها بعود في يده قائلاً : « جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدىء الباطل وما يعيد » .

وطهرت الكعبة داخلها وخارجها من الأوثان والأصنام ومن الصور ومن أمارات الشرك والوثنية ، وعادت الكعبة كيوم بنائها من قِبَل إبراهيم وإسماعيل على يد محمد ﷺ ، وعادت حرمة مكة إليها كيوم خلقها الله لا تحل لأحد قبله ولا لأحد جاء بعده .

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة زادها الله شرفاً ، وولى على مكة عتاب بن أسيد ، وكان وصول رسول الله المدينة في آخر ذي القعدة أو مستهل ذي الحجة سنة فتح مكة : سنة ثمانٍ من الهجرة .

ولم يحج الرسول الكريم مع أنه كان على أيام من يوم عرفة ، وسبب ذلك أن القبائل العربية من مختلف أقطارها كانوا سيحجون حجة الجاهلية ، ولا يريد رسول الله أن يصحبه مشركون بعقائدهم وتلبياتهم وعاداتهم الوثنية ، ولهذا ترك الحج إلى عام آخر حتى يتهيأ الوقت المناسب ، وتطهر الطرق والألسنة من الشرك .

وفي سنة تسع من الهجرة انتدب النبي ﷺ صاحبه أبا بكر الصديق

ليحج بالمسلمين وولاه إمارة حجهم دون غيره من الصحابة تكريماً له وقدراً لصحبته وجهاده ، فقد خرج فاراً من مكة مع رسول الله ﷺ ، ولما فتح الله مكة على رسوله كان معه أبو بكر ، ولا إمرة لأحد معه عليه الصلاة والسلام .

فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة تخلف رسول الله عن الحج لأنه لم يطهر بعدُ من الوثنيين الذين يفدون إلى الكعبة للحج ، فأمَّر رسول الله أبا بكر على المسلمين الراغبين في الحج ، وأمره أن يعلم الناس في الموسم أنه لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله فهو على عهده .

فحج أبو بكر بالمسلمين ودخل مكة أميراً على كل حجاج بيت الله بعد أن خرج من مكة منذ تسع سنوات خائفاً فاراً مع رسول الله ، وعاد إليها سيداً للمسلمين بعد الخوف والذل آمناً عزيزاً بعزة الله ورسوله ، آمراً مطاعاً .

وأدى أبو بكر والمسلمون الحج على سنة الإسلام ، إلا أنه كان في حجته المشركون حجوا على سنة الجاهلية ، فوقفوا بعرفة كما كانوا يقفون قبل الإسلام ، وطافوا بالبيت عراة ، فجاءهم النذير بألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، وانتشر النذير في عالم العرب فعرفوا قوة الإسلام وأنه لا قبل لهم بها فطهرت مكة وسبلها وطرق المشاعر من الشرك والوثنية ، إذ لم يعد أحد يجرؤ على الحج على سنة الجاهلية .

حجة النبي

لقد طهر الله الكعبة ومكة والمشاعر كلها من الشرك والوثنية ، ولم يعد في هذه البقاع المقدسة الطاهرة غير دين الإسلام ، وتهيأت كل الأسباب لرسول الله حتى يحج حجة الإسلام ، ويتلقى المسلمون عنه المناسك ، ويكون لهم شرف صحبته عليه الصلاة والسلام .

وأعلن الرسول ﷺ في شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة أنه حاج ّ عامهم هذا ، ودعاهم إلى الحج معه ، فلبوا وهم أشد ما يكونون سعادة بهذه النعمة العظيمة أكرمهم بها الله ورسوله ، فاجتمع بالمدينة خلق كثير .

وفي يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة عشر من الهجرة تهيأ الرسول ﷺ للسفر ، ودخل المسجد وخطب الناس ، ثم صلى ، ثم دخل منزله ، ورجّل شعره وادّهن ، ثم ارتدى ثيابه ، ثم ارتحل على ناقته القصواء ، وغادر المدينة ونزل بذي الحُلَيْفة على بعد ستة أميال منها ، وبات بها .

واجتمع للحج مع رسول الله عشرات الألوف ، وغادر بهم ذو الحليفة يوم الأحد ٢٦ ذي القعدة سنة ١٠ هـ (٣٠ يناير سنة ٦٣٠ م) وفي يوم ٤ ذي الحجة سنة ١٠ هـ (٦ فبراير ٦٣١ م) دخل مكة ، ونزل

بالأبطح ، وكان قد استعد لدخولها بالاغتسال وهو محرم ، ومـا كاد يدخل المسجد الحرام ويرى الكعبة بيت الله حتى رفع يديه إلى السماء وقال :

« اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابـة ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً » .

ولم يصلِّ الرسول ﷺ ركعتين تحية المسجد ، لأن تحيـة المسجد الحرام الطواف بالكعبة ، وهذه التحية آية على شرفها وعظمها وكرمها وهيبتها ، فهي أعظم من الركعتين اللتين تؤديان تحيـة المسجد ، ومن هذه العظمة أن الطواف بالكعبة مختوم بركعتين تسميان ركعتي الطواف.

وأدى رسول الله حجه خير ما يكون الأداء ، ورأى المسلمون رسول الله وهو يؤدي مناسك حج الكعبة ، وأخذوها عنه ، ونحن أخذناهـا بالتواتر ويأخذها عنا من بعدنا ، وهكذا إلى قيام الساعة .

والحج كله ليس إلا للكعبة تشريفاً لها وتعظيماً وتكريماً ، ومن ذلك كانت قبلة المسلمين ومطاف الطائفين حتى يكون تكريمها مستمراً دائمـاً موصولاً لا ينقطع ، سواء أكان المسلم بحضرتها أم كان بعيداً عنها .

ونردد على الدوام قول رسول الأنام محمد عليـه الصلاة والسلام : « اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفاً وتعظيماً وتكريماً وبراً » .

تاريخ ظهور زمزم
ثم حفرها بعد ستة وعشرين قرنا

سألني بعض القراء عن تاريخ ظهور زمزم ، ويودون أن يعرفوا ذلك ، لأنهم لم يجدوا في كتب التاريخ ما يشير إلى ذلك .

وأنا نفسي لم أجد في الكتب التي اطلعت عليها تاريخ ظهور زمزم .

وبينا أؤلف كتابي « حجة النبي ﷺ » صادفني شرب رسول الله ﷺ من ماء زمزم ، وما ورد في فضله من أحاديث ، فكتبت عن حفر زمزم ، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما في هاجر وابنها عندما قدما مع إبراهيم إلى مكة وتركهما بها .

وذكرت سؤال من سألوني عن تاريخ ظهور زمزم فألهمني الله تبارك وتعالى ، واهتديت إلى الجواب الذي نمهد له بقصة هاجر من وجهة نظر الإسلام ووجهة نظر المصادر الإسرائيلية ، لنقف على الفارق بين الروايتين .

تروي التوراة المحروفة وهي غير توراة موسى عليه السلام أن سارة زوج سيدنا إبراهيم كبرت ويئست ، وكانت راغبة في ولد ، وكان من عادة قوم إبراهيم أن الزوج كانت تأذن لزوجها – إذا رغبت في الولد –

بأن يتصل بجاريتها فأذنت لإبراهيم أن يتصل بجاريتها هاجـر المصرية ، فحملت منه ، فاستصغرت سيدتها ، فشكت لزوجها ، ففوضها أن تعمل ما تريد ، فهاجر ملك يمينها ، وهي حرة فيما تملك ، فأذلّت سارةُ جاريتها فهربت هاجر وظهر لها الرب — كما تزعم التوراة — ونصح لها بالعودة إلى سيدتها وطاعتها ، وبشرها بإكثار نسلها ، فعادت ، ثم ولدت إسماعيـل ، وبعـد مولده بثلاث سنوات ولدت سارة إسحاق ، وكبر الطفلان حتى بلغ إسماعيل السادسة عشرة ، وإسحاق الثالثة عشرة ، وسخر إسماعيل من أخيه ، فغضبت سارة ، وطلبت إلى إبراهيم طرد الجاريـة وابنها ، فتألم ، ولكن أوحى الله إليه أن يسمع لسارة ، وقال له — وهو نص التوراة بالعربيـة — : « اسمع لقولهـا ، لأنه بإسحاق يدعى لك نسل ، وابن الجارية سأجعله أمة ، لأنه نسلك » .

وهيأ إبراهيم خبزاً وقربة ماء وأعطاهما هاجر وصرفها مـع ابنهـا ، وتاها في بريـة بئر السبع ، ونَفِدَ منهما الماء ، فابتعدت عن ابنهـا الطريح تحت شجرة لئلا ترى موتـه ، وأجهشت بالبكاء ، وسمع الله لإسماعيل ، وكلم هاجر أن تأخذ بيد ابنها وتمضي بعد أن وعدهـا بأن يجعل ابنها أمة عظيمة ، وأبصرت بئر ماء ، وسقت الغـلام ، وسكنا برية فاران ، وزَوَّجته من مصر .

هذه رواية التوراة ، ويظهر فيها التلفيق والافتعال ، فإسماعيل ليس طفلاً حتى يجهده السير ويهلكه العطش دون أمـه ، فهو شاب قوي ، يحتمل الجهد والعطش ، ويستطيع المشي ، ثم إن المكان ليس قفراً ، ففيه شجر استظل بـه ، والموضع ليس حاراً لاهبـاً ، بل بارد تظلله الأشجار ، والظمأ لا يشتد في مثل هذا الموضع .

وإذا كان إسماعيل مشرفاً على الموت فكيف تنهضه ويمشي ؟! .

ولسنا بسبيل نقد رواية التوراة ، فتهافتها ظاهر .

وسكتت المصادر الإسرائيليـــة عن مجيء إبراهـــيم إلى الجنوب حيث الحجـــاز ، وكذلك المصادر المسيحية ، لأن اليهود والنصارى أعـــداء الإسلام ، فهم أنكروا مجيئه عندما ذكرته المصادر الإسلامية التي هي أوثق من كل مصادرهم .

وهـذه رواية الإسلام عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : « ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيـل وهي ترضعه حتى وضعها عنـد البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ .

« فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليهـــا ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن ، لا يُضيِّعُنا .

« ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعـا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ .

وجعلت أم إسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نَفِدَ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوّى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليهـا ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات » .

ثم قال ابن عباس : « فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه ، تريد نفسها ، ثم تسمَّعت أيضاً فقالت : قــد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بجناحه – أو قال: بعقبه – حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه وتقول بيدهـا هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف ، فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملَك : لا تخافوا الضَّيْعة ، فإن هذا بيت الله ، يبني هذا الغلام وأبوه ، وان الله لا يضيع أهله » .

وقال : « فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين عند كداء ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً[1] فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جَرِيّـاً أو جريّين[2] ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا أن نتزل عندك ، قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء ، قالوا : نعم » .

هذه رواية الإسلام ، وهي أصح رواية على الإطـلاق في موضوع إسماعيل وأمه ، والمشهد كله طبيعي ، فالموضع قفر لا ماء فيه حتى الطير لا تمر منه ، وقلق هاجر على طفلهـا الذي يتلوى من الجوع والعطش طبيعي ، فالماء قد نفد ، وثدي الأم قد جفَّ من جوعهـا وظمئها ، وبحثها عن مـاء أو أناس طبيعي ، وكذلك سعيها وصعودها الصفا ثم هبوطها إلى الوادي ثم ارتقاؤها جبل المروة ، ثم التردد في الوادي بين الجبلين وتكرر ارتقائها .

وليس في هذا المشهد كله بجزئياته وتفصيلاتـه أي تكلف أو افتعال

---

١ العائف : الحائم على الشيء يريد أن يقع عليه ، وهو خاص بالطير .
٢ الجري (على وزن فعيل) : الدليل .

أو تلفيق ، بـل كله طبيعي يقع لكل أم تكون في موقف هاجر التي كانت مطمئنة ، لأنها مؤمنة بربها ، ومؤمنة برسالة والد طفلها ، ومصدقة بنبوته وبكلام الملاك .

في هذا المشهد يكلمها ملاك ، وهو واقع في تاريخ الأنبياء والرسل، أما رواية التوراة فتلفيق محض ليس في حاجة إلى نقد يكشفه .

وإنكار اليهود والنصارى ومن تبعهم مجيء إبراهـيم إلى الحجاز ومكة صادر من عداوتهـم للإسلام ، ومن مقاصدهم إثبات الإرث لإسحاق دون إسماعيل ، حتى يكون لليهود حجة في الاستيلاء على فلسطين وشمال الجزيرة إلى العراق ، وأرض النيل ، مـع أن وعد الله لإبراهيم وقف على إسماعيل ، لأنه كله ينطبق عليه دون غيره .

ومجيء إبراهيم إلى مكة وبناء بيت الله بهـا ضرورة تفرضها رسالة إبراهيم ، فهو خرج من وطنه العراق مهاجراً ، لأنه لم يجد لرسالته فيه مجالاً ، فقد حاربه حاكمه ، والشرك والوثنية المعتقد السائد ، وجاء إلى الشام كما تذكر المصادر اليهودية ـ المسيحية فلم يجد لرسالته مكاناً لسيادة الشرك ، فذهب إلى فلسطين ، فإذا هي موطن للتوحيد والشرك ، ووجد بها من الموحدين من له سيادة حتى أن إبراهيم قدم العُشْر مما معه لملكي صادق ملك القدس .

ويصفه قاموس الكتاب المقدس لليهود والنصارى بقوله : « اسم سامي معناه « ملك البر » وهو ملك شاليم أي أورشليم (تك ١٤ : ١٨ — ٢٠) وكاهن الله العلي ، أخرج خبزاً وخمراً لإبراهيم في وادي شَوَى ، وأخذ عُشْراً منه ، وهو رمز إلى المسيح الذي هو كاهن على رتبة ملكي صادق (مز ١١٠ : ٤ وعب ٦ : ٢٠ و ٧ : ١ — ١٧) وذلك أنهـما كاهنان ليسا من سبط لاوى ، وليس لكهونتهما بداءة ونهاية معلومـة ، وهمـا ملكا البر والسلام ، والظاهـر أنـه كان محافظـاً على سنة الله

القديمة بين شعب وثني ، ولذلك كانت له الأسبقية على إبراهيم وعلى الكهنة الذين تسللوا منه » .

ففلسطين ليست صالحة لأن تكون قاعدة ومنطلقاً لرسالته ، ففيها ملك مؤمن ، ولادته معجزة ، لأنها بلا بداية – كما يدّعون – ولأنه من غير أم ولا أب ، فهو أعلى من المسيح نفسه قدراً ، وكذلك أعلى قدراً من إبراهيم لما ذكروا في كتبهم المقدسة ، فهو لا يستطيع أن ينشر رسالة التوحيد في بلد يحكمه رسول موحد أعظم منه شأناً في السماء والأرض كما وصفوا .

كذلك لا يستطيع إبراهيم نشر دعوته في فلسطين الوثنية ، وليس في قدرته أن يبني لله بفلسطين بيتاً ، فهو لم يكن يملك بها شبراً من الأرض ، فلما ماتت زوجته سارة لم يجد قبراً لها ، فاشترى قطعة أرض من أحد بني حثّ ، ولم يذكر في التاريخ أنه بني على هذه الأرض بيتاً لله أو لنفسه ، فهو – لهذا ولغيره من الأسباب – لم يستطع بناء بيت لله .

ومصر التي زارها إبراهيم وثنية ، وقد ذهب إليها خائفاً لا يريد غير الرزق ، ويعرف أنها ليست له بدار قرار ولا قاعدة لرسالته الدينية .

وكذلك الأمر بالنسبة لغير بلدان الجزيرة العربية ، فطبيعي أن يتجه إلى الجنوب وإلى مكان البيت .

وأعمال الرسل وأقوالهم وحي السماء ، والله لم يوح إلى إبراهيم بأن يبني له بيتاً في غير مكة ، ولهذا لم تكن كل البلدان مهيأة لأن يبنى بأي بلد منها بيته المكرم غير مكة التي جعلها حراماً منذ خلق السماوات والأرض .

وما دمنا مؤمنين بنبوة إبراهيم ورسالته فإن من تمام الإيمان أن نؤمن بأنه قد أوحي إليه من ربه أن يمضي إلى حيث موقع مكة ، ويضع ابنه

إسماعيل وأمه عند مكان البيت ، حتى إذا كبر الطفل بنى معه البيت .

وسكوت المصادر الإسرائيلية والمسيحية عن مجيء إبراهيم إلى الجنوب ليس حجة على المصادر الإسلامية التي أثبتت هذا المجيء ، فهي في روايتها لكل تواريخ الرسل والدعوات الدينية ورسالات السماء أصدق المصادر على الإطلاق .

فمجيئه إلى مكة وتركه إسماعيل وأمه بها ثم بناؤه البيت حقائق تاريخية لا سبيل إلى إنكارها أو الشك فيها ، لأن وجود البيت وتواتر الأخبار عن مجيئه بابنه إسماعيل وأمه حقيقة مشهودة ثابتة .

وتواتر الأخبار إلى أن انتهى إلى الجاهليين قبل ميلاد محمد رسول الإسلام يثبت أن الإسلام لم يخترع هذا المجيء طمعاً في شرف ديني أو دنيوي ، لأن شرف محمد ﷺ فيه الغناء عن كل شرف .

إن الإسلام لم يخترع دعوى مجيء إبراهيم وبنائه البيت ، لأنه كان معروفاً في عهود سبقته ، وجاء الإسلام فأيد الحقيقة المعروفة .

ونحن وطأنا بقصة إبراهيم وهاجر وإسماعيل لنذكر ظهور زمزم ، لارتباطه بمجيئهم إلى مكان البيت .

والرواية الإسلامية ذكرت أن إسماعيل كان طفلاً رضيعاً ، وهي أصح من رواية التوراة التي زعمت أن عمر اسماعيل كان ست عشرة سنة عندما طُرِد مع أمه . ثم زعمت حادثة عطش إسماعيل حتى أشرف على الموت ، وهو زعم غير حق ، لأن من كان في سنه يكون أصبر من أمه على العطش ، وأقدر على السير ، وأعرف بالطرق ومواقع الماء في بلده .

أما رواية الإسلام الصادقة فتذهب إلى الحق المؤيد بواقع الناس ، وهي أن إسماعيل كان طفلاً رضيعاً ، ونفد الماء فعطش حتى كان

يتلوى ؛ فأصابت الحيرة والقلق أمه ، فأخذت تسعى بين جبلي الصفا والمروة وترقاهما رجاء أن تجد ما يغيثها فأغاثها الله بماء زمزم يفور .

وإسماعيل قد ولد سنة ١٩١٠ قبل الميلاد كما يذكر باحثو أحداث الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى ، وهو تاريخ يتفق مع ما ذهب إليه بعض مؤرخي العرب كالمسعودي قبل أولئك الباحثين .

ونحن نرى أن قدوم إسماعيل إلى مكة مع والديه كان في سنة مولده ، لأن سارة قد غضبت على جاريتها عند حملها ، وطبيعي أن يزداد غضبها وغيرتها بعد أن ولدت ابناً ، وتطلب إلى زوجها طرد جاريتها وابنها ، لا أن تنتظر ستة عشر عاماً .

فما دام مولد إسماعيل كان سنة ١٩١٠ قبل الميلاد تقريباً ، وهي نفسها سنة مقدمه مع والديه إلى مكة فإن ظهور زمزم كان في هذه السنة نفسها .

وإذا أضفنا إلى السنوات الـ ١٩١٠ السنوات التي بعد الميلاد حتى يومنا هذا وهي ١٩٧٧ سنة فإن المجموع يكون ٣٨٧٨ سنة ميلادية [١] .

وأما بالنسبة للتقويم الهجري فإن ظهور زمزم كان في سنة ٢٥٧٢ قبل ميلاد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام تقريباً ، وبيننا وبين ظهور زمزم بتقويمنا الهجري حوالى أربعة آلاف سنة .

هذا ما ظهر لي بعد التحقيق ، والله أعلم .

هذا مبدأ تاريخ وجود زمزم ، وعمران مكة من جديد ، لأن من

---

١ كتب هذا الفصل سنة ١٣٩٧ وهو أحد فصول كتابنا « حجة النبي صلى الله عليه وسلم »

الثابت أن موقع مكة كان في طريق القوافل من الجنوب إلى الشمال ، والعائدة من الشمال إلى الجنوب ، وما جاء إبراهيم إلى المكان الذي وضع فيه زوجه وابنه إلا وهو مأمور من ربه ، وضعهما فيه تمهيداً لإحياء مكة ورفع قواعد البيت .

وعلى أي حال هذا رأي للبحث والدرس ، وان كانت الحقيقة التاريخية التي لا يمكن أن يتطرق إليها شك أن إبراهيم جاء بزوجه وابنه إلى مكة التي عمرها بنو جرهم وبنو إسماعيل ، وبعد أن كبر إسماعيل جاء إليه أبوه وأخذا في بناء البيت ورفعا قواعده وبقي زمزم معيناً لا ينضب .

وبغى الجرهميون ، وجاءت قبيلة خزاعة تشاركهم السكن ، ثم نشب قتال بينهم وبين الجرهميين وبني إسماعيل انتهت بفوز الخزاعيين على الجرهميين الذين تفرقوا في تهامة وحوالى مكة .

أما زمزم فقد نضب معينها بأمر الله من جراء استخفافهم بالبيت ، ولم يعد ثـم من يعرف مكان زمزم .

ومضى حوالى ستة وعشرين قرناً من تاريخ ظهور زمزم في عهد إسماعيل إلى عهد عبد المطلب جد الرسول ﷺ ، وكان جليل المقام عظيماً مقدور المكانة مرفوع الذكر لدى أهل مكة وبخاصة عند قريش ، ومنذ اختفاء زمزم حتى عهد عبد المطلب لم تكن معروفة عند الناس .

وذات ليلة رأى عبد المطلب في المنام أن هاتفاً يهتف به أن يحفر زمزم ، وتكرر الهاتف حتى أخبر بموضعه ، فبدأ يحفر ، يعينه ابنه ووحيده الحارث ، ولم يكن لديه من الولد غيره ، حتى إذا كاد يصل إلى مبتغاه نازعته قريش وأرادت منه أن يشركها معه في زمزم هبة الله

لأبيهم إسماعيل ، فأبى عبد المطلب ، وكاثروه فنذر لله إن رزقه بعشرة من الأبناء أن يضحي بأحدهم .

ويشاء الله أن يكرم عبد المطلب فيخرج ماء زمزم ، ويكون له ، ولكنه أباحه لكل شارب ، وأقام من نفسه حارساً ، وصارت السقاية له ، ثم من بعده لأولاده .

وفي حجة الوداع مضى رسول الله ﷺ إلى بئر زمزم ، وكانت السقاية إلى العباس رضي الله عنه ، ودعا رسول الله ﷺ بسَجْل[1] من زمزم فتوضأ دون أن ينزع هو نفسه ﷺ ، تاركاً ذلك لأصحاب الحق في السقاية وقال ﷺ : « انزعوا يا بني عبد المطلب ، فلولا أن تُغلَبوا عليها لنزعتُ معكم » .

ومقصد رسول الله ﷺ من مقالته أن نزع ماء زمزم من البئر وإعطاءه الحجاج حق لهم وحدهم دون غيرهم ، فلهذا لم ينزع بيده لئلا يتزاحموا على البئر ، ويسقي كل منهم نفسه ، ويغلبوا أولاد عبد المطلب فيما هو حق لهم وخاص بهم ، مع أن رسول الله ابن عبد المطلب ، ويروى أنه قال :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب .

فهو ابن عبد الله بن عبد المطلب ، ولكنه – مع هذا – لم ينزع الماء بيده ، لئلا يتخذ المسلمون عمله أسوة حسنة فينافسوا أصحاب الحق حقهم .

وأباح رسول الله للعباس ومن معه في المزدلفة أن ينفروا إلى منى قبل الناس ، كما أذن لهم أن يبيتوا ليالي منى بمكة ليقوموا بسقي

١ السجل (بفتح السين وتسكين الجيم) : الدلو الكبيرة المملوءة .

الحجاج من زمزم ، فكانوا يبيتون بمكة ويقضون النهار بها حتى إذا جاء موعد رمي الجمرات انطلقوا إلى منى.. ثم عادوا إلى وظيفتهم بمكة حرسها الله .

وعني الخلفاء والملوك والحكام ببئر زمزم كثيراً ، حتى إذا جاء العهد السعودي الأخير وكثر حجاج بيت الله الحرام والمعتمرون وبلغ عددهم في كل عام مئات الآلاف زاد الاهتمام ببئر زمزم والمسجد الحرام الذي تضاعفت مساحته .

حكومات وأفراد يعتدون على الكعبة

منذ بني إبراهيم وإسماعيل الكعبة وهي مقدسة ومباركة ، ولم يتعرض لها أحد بأذى ، لأن حرمتها منعت عنها كل عدوان .

وكان من حكام الجزيرة من لم يسمعوا عنها ، فهم لذلك لا يعرفون لها قداسة .

وأول من أراد التعرض لها – كما مر ذلك في أول فصل بهذا الكتاب – ملك حمير تبع أسعد أبو كرب ، وقد أراد التعرض للكعبة يريد هدمها ، واتجه إلى مكـــة يريد أن ينفذ ما أراد ، إلا أن نصحاء نصحوا له ألا يتعرض لها بغير التكريم والإجلال ، فسمع لنصحهم ، ودخل مكـــة طائعاً ، وأدى حق مكة ، فطاف بالكعبة ، وذبح وأطعم ، وكسا الكعبة خير كسوة .

وذهب بعض الاخباريين إلى أن سبب عدوله عن هدم الكعبة أن ملك حمير كان قد قصد إليها يريد هدمها ، فبينـــا هو وجيشه نازلون ببعض المنازل هبت عليهم ريح صرصر عاتية أطاحت بخيامهم ، فأدرك أن ما وقع عليهم نذير من رب الكعبة ، فعدل عن الشر الذي كان قد نواه ، وقدم إلى بيت الله طائعاً منيباً .

ويذكر المؤرخون أن قدوم ملك حمير إلى مكة كان قبل البعثة النبوية بمئتي سنة ، وبعض الروايات تقول : مئتان وعشرون سنة .

ووجود بيت الله الحرام بمكة لا يرضي كثيراً من ارباب الديانات الأخرى كالمسيحية التي تتمتع بأمبراطورية ضخمة ، لأن الكعبة صارت ذخر العرب ؛ وأقامت لهم قومية تقابل القوميات الأخرى ، كما أن بعض حكام الأقطار العربية كاليمن لا يرضيهم أن يذهب رعاياهم إلى مكة حاجين يدينون لها بالطاعة والولاء .

ومن هؤلاء الحكام أبرهة ملك اليمن التابع لملك الحبشة ، فقد بنى « القليس » بصنعاء ، ويقول واصفوه : إن القليس كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض .

وكتب أبرهة إلى ملك الحبشة : أني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته منها حتى أصرف إليها حج العرب.

ومفهوم هذه الرسالة أن أبرهة بيّت الشر لبيت مكة الذي يحج إليه العرب ، وغير بعيد أنه أعلن عن عزمه على هدم الكعبة ليتم له صرف العرب عن الكعبة إلى القليس ، لأن وجود الكعبة سيجذب حجاج اليمن كما يجذب غيرهم ، فإذا أراد ما عزم عليه من صرف العرب إلى القليس فلا مفر له من هدم الكعبة .

ويذكر ابن كثير في تاريخه ١٧٠/٢ : « قال ابن اسحاق : فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي غضب رجل من النَسَأة من كنانة الذين ينسئون شهر الحرام إلى الحل بمكة أيام الموسم كما قررنا ذلك عند قوله : ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر ﴾ الآية ؛

« قال ابن اسحاق : فخرج الكناني حتى أتى القليس فقعد فيه ، أي أحدث حيث لا يراه أحد ، ثم خرج فلحق بأرضه ، فأخبر أبرهة

بذلك ، فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك : إنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا ، فغضب فجاء فقعد فيهـا ، أي أنه ليس لذلك بأهل ، فغضب أبرهـة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمـه .

« ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظّعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام » .

ووصل أبرهة إلى قرب الحرم ، ونزل في « وادي مُحَسِّر » كما تقول بعض الروايات ، ففي الزرقاني شرح موطأ الإمام مالك في بـاب « الوقوف بعرفة والمزدلفة » :

« مُحسِّر ، بكسر السين مشددة : بين منى ومزدلفة ، وسمي بذلك لأن فيل أبرهة كَلَّ فيه وأعيـا فحسر أصحابه بفعله ، وأوقعهم في الحسرات » .

وإذا صح هذا فمعناه أن أبرهة وجيشه دخلوا الحرم ، لأن وادي محسر في حدوده .

وهناك روايات تقول : إن أبرهة وجيشه وفيله نزلوا المُغَمَّس استعداداً لدخول مكة وهدم البيت الحرام ، ويقول في ذلك أبو الصلت ربيعة بن أبي ربيعة وهب بن علاج الثقفي ، وقيل : لأمية بن أبي الصلت :

إن آيـات ربنا ثاقبـات ما يماري فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهـار فكل مستبين حسابـه مقدور
حبس الفيل بالمغمَّس حتى صار يحبو كـأنه معقور

والمغمس : موضع يحاذي عرفة ، وموقعه بالحل وليس بالحرم .

فعلى هذه الروايات يكون نزول أبرهة بالمغمس ، وهو لا يبعد عن وادي محسر غير بضعة أميال معدودات .

وبعث أبرهة خيالة له إلى مكة فصادفوا إبلاً لقريش وغيرهم فاستاقوها وكان بينها مئتا بعير لعبد المطلب بن هاشم الذي كان زعيم قريش وسيدهم وسادن الكعبة .

وأصاب الهم عبد المطلب ، وفكر في الدفاع عن بيت الله ، ولكنه لم يجد من الناس إقبالاً على فكرته ، وحاول أن يرد الغزاة سلماً ففاوض ولم يصل إلى رغبته .

وأهل مكة معذورون إذا لم يستعدوا لقتال أبرهة ، فقد جاء بجيش لا قبل لهم به ، وقد علموا بما أصاب غيرهم عندما قاتلوا أبرهة ليصدوه عن بيت الله فانتصر عليهم .

فهم إذا قاتلوا وقتلوا كان هدم البيت سهلاً ، فإذا بقوا أحياء وهدم أبرهة البيت أمكنهم بناؤه .

وبعث أبرهة رسولاً هو حناطة الحميري إلى مكة ليسأل عن سيد أهلها ويخبره أن الملك يقول : إنه لم يأت لحربكم ، وإنما جاء لهدم البيت ، فإن لم تعرضوا له بحرب فلا حاجة له بدمائكم .

وطلب أبرهة إلى رسوله أن يأتيه بسيد أهل مكة ، فلقي حناطة عبد المطلب ، وأبلغه رسالة أبرهة فقال له عبد المطلب : ما نريد حربه ، وما لنا بذلك طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته ، وإن يُخَلِّ بينه فما عندنا دفع عنه .

وانطلق عبد المطلب مع حناطة إلى أبرهة ، وعرض عليه الأموال رجاء أن يرجع فأبى .

وكان أبرهة قد استقبل عبد المطلب استقبالاً كريماً ، فقد كان

عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم ، وكان جسيماً جليلاً وضيئاً، فلما رآه أبرهة أكرمه وأجله وعظمه ، وبلغ من تعظيمه إياه أنه نزل عن سرير ملكه وجلس على البساط وبجانبه عبد المطلب .

وسأله أبرهه عن حاجته ، فأجابه : إن رجاله قد أخذوا له مئتي بعير ، يطلب ردها .

فاستصغر أبرهة شأن عبد المطلب بعد أن أعظمه لهذا الطلب ، وقال له : كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه !.

فرد عليه عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً يمنعه.

فقال أبرهة : ما كان ليمتنع عني !.

فقال عبد المطلب : أنت وذاك .

ورد الملك إلى عبد المطلب إبله .

ولا يظنن قارىء أن عبد المطلب شغله الحرص على إبله عن الحديث عن بيت الله ، فالتفاوض فيه لم يثمر ، لأنه عرض الأموال يفدي بها البيت ، وذكر تذكيراً بأن البيت بيت الله وبيت خليله إبراهيم ، ويعرف عبد المطلب أن أبرهــة مسيحي يؤمن بوجود الله ، ويؤمن بإبراهيم ، فذكر لحناطة الحميري رسول أبرهة إليه ذلك رجاء أن يثني التذكير بالله وبإبراهيم عزمه ، فلما علم بعناد أبرهة وإصراره لم يطلب إليه حاجته منه، بل طلب حقه ، أن يرد إليه إبله .

وما كان عبد المطلب طامعاً حريصاً ، فهو عندما تسلم إبله قلدهــا وأشعرها ووضع عليها النعال ليعرف الناس أن الإبل المئتين أهداها إلى بيت الله ، وهو الهدي المعروف .

فلو كان في عبد المطلب حرص وطمع لما أهدى إلى الله ، وإنما إيمان عبد المطلب دفعه إلى ذلك ، وفرق إبله في الحرم ، فإذا أصيب شيء منها زاد غضب الله على من اقتحموا الحرم ظلماً وبغياً وعدواناً .

وبادر عبد المطلب إلى الكعبة وأخذ بحلقة بابها يدعو ربه ويستنصره، وقال :

لا هُمَّ إن العبدَ يمـ ـنع رحله فامنعْ رحالَكْ

لا يغلبن صليبُهمْ ومحالُهم غَدْواً محالَكْ

إن كنتَ تاركهم وقبْـ ـلتنا فأمْرٌ ما بدا لَكْ

وهيأ أبرهة جيشه وفيله استعداداً لدخول مكة طمعاً في هدم الكعبة المشرفة ، وإذا الفيل يبرك ، لا يريد أن يطأ حرم الله بغياً ، فإذا وجهوه شطر غير الحرم أسرع ، فإذا أعادوا توجيهه إلى بيت الله أبى وبرك ، وحاولوا فأخفقوا .

وكان حادث الفيل أول نذير لهم ، فقد شهدوا المعجزة ، فهو يسير على كل اتجاه إلا الحرم فإنه يبرك .

وطبيعي أن تحدث هذه المعجزة ربكة في الجيش وهلعاً في النفوس . وبينا أبرهة وجيشه في هيئتهم الحربية فاجأتهم معجزة عظمى ، فقد انتشرت في السماء طير أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، ما تصيب أحداً منهم إلا هلك .

وما رأوا الطير ترميهم حتى بادر جيش الحبشة إلى الهرب لا يلوون على شيء ، وأصيب من أصيب ؛ ونجا من نجا ليكون عبرة ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به يسقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر حتى هلك بين قومه .

وقد وصف القرآن أبلغ وصف هذا الحادث فقال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . أَلَمْ يجعلْ كيدهم في تضليل . وأرسلَ عليهم طيراً أبابيلَ ، ترميهم بحجارة من سِجّيل . فجعلهم كعَصْفٍ مأكول ﴾ .

وزادت هذه المعجزة من مكانة البيت لدى العرب ، كما زادت من مكانة قريش حتى قال العرب عنهم : أهل الله ، قاتل عنهم ، وكفاهم مؤونة عدوهم .

أما عبد المطلب فقد شبهته قريش بإبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، ووصفوه بأنه إبراهيم الثاني .

وهذه مكانة لم يصل إليها أحد من قريش غير عبد المطلب الذي كان أعلى مثل في مكارم الأخلاق قبل الإسلام .

وإذا تعرضت الكعبة لأذى من بعض أصحاب الديانات المخالفة فإنها قد تعرضت لفظائع ممن يدعون الإسلام وفيهم ملاحدة .

وعندما أكرم الله العالم بالإسلام زادت قداسة الكعبة إلى أن أسرف بعض الصحابة حتى عد تأديب الخادم وزجره إلحاداً في الحرم مثل سيدنا عبد الله بن عمر ، فإذا أقبل على مكة نزل في الحل ، فإذا دخل الحرم ورأى من خادمه ما يكره فإنه ينتظر إلى أن يخرج إلى الحل فيؤدبه هناك .

وفي سنة ٦٣ و ٦٤ من الهجرة تعرضت المدينتان المقدستان والحرمان الشريفان وبيت الله وحرم رسوله لكارثة غاية في البشاعة والنكر ، فقد أرسل يزيد بن معاوية جيشاً من أهل الشام عصبته إلى المدينة مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر يزيد قائد جنده مسلم بن عقبة المُرِّي أن يذيق أهل المدينة وأهل مكة كل ضروب الشر الذي لا شر مثله .

ولم يكتف يزيد بقتل سيدنا الحسين وآل بيت محمد صلى الله عليه

وسلم حتى ثنى ببلد رسول الله ، فأباحها لجند الشام ثلاثة أيام يفعلون من المنكر ما لا يجوز فعله ببلاد الكفر ، وقتل جند الشام من الصحابة والتابعين وأولادهم وأطفالهم ونسائهم آلافاً مؤلفة .

وبلغ من كفر المري قائد جند يزيد أن سمى المدينة « نتنة » نكاية بمن سماها « طيبة » وما سماها طيبة غير نبي الهدى ، وأجبر أهل المدينة بالسيف على أن يبايعوا على أنهم عبيد يزيد ، فمن لم يبايعوا قتلهم .

ورسول الله ﷺ يقول : « من أخاف المدينة أخافه الله » .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « من أراد أهل المدينـــة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء » .

ولما انتهى ذلك المري من الشر الذي صبه على المدينة وأهلها اتجه مع جيش الشام إلى مكة ؛ وفي الطريق هلك المري اللعين فتولى القيـــادة الحصين بن نمير ، وكلهم مثل بعض في الكفر والفسوق .

يقول المسعودي (مروج الذهب ٧١/٣) : « ونصب الحصين فيمن معه من أهل الشام المجانيق والعرادات على مكة والمسجد من الجبـــال والفجاج » إلى أن يقول : « فتواردت أحجار المجانيق والعرادات على البيت ، ورمى مع الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتـــان وغير ذلك من المحروقات ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البنية » .

فبنى ابن الزبير رضي الله عنهما الكعبة على قواعد إبراهيم ، وعلى ما كان يرغب محمد عليهما الصلاة والسلام .

وحدثت فظيعة لم يشهد بيت الله أفظع منها في كل تاريخه ، تلك التي حدثت من القرامطة الكفرة الفجرة ورئيسهم المسمى أبا طاهر سليمان ابن أبي ربيعة الحسن القرمطي ، الذين دخلوا مكة والمسجد الحرام وهما يغصان بحجاج بيت الله الحرام ، دخلوا يوم التروية ، يوم الثـــامن من

ذي الحجـة سنة ٣١٧ هـ ففتكوا بالحجاج وبأهل مكة مصلين وطائفين وعائذين بالكعبة ومتعلقين بأستارها ، ودخل أبو طـاهر بفرسه المطاف وصفّر لها حتى بالت فيه ، وأعلن كفره على رؤوس الأشهاد ، وحقر الكعبة تحقيراً ، وضرب بدبوسه الحجر الأسود الشريف ففلقه .

وسالت الدماء دماء الآلاف في المطاف بين يدي الكعبة المعظمة وفي رحاب المسجد الحرام وطرقات مكة .

وانتزع القرمطي اللعين الحجر الأسود وأخذه معـه ، كما قلع باب الكعبة ، وسطا على كل حلاها ، ومزق أستارها وكسوتها تمزيقاً ، وغادر القرمطي ومن معه مكة بعد أحد عشر يوماً تصحبهم اللعنة أبد الدهر .

ولم تقع بعد حادثة القرامطة غير حوادث فردية إلا حادثة الترك التي سنأتي على ذكرها في خاتمة هذا البحث .

ولما كان الحجر الأسود أبرز ما في الكعبة فإن العدوان عليه عدوان على الكعبة نفسها ، وبلغ من قداسة هذا الحجر الكريم العظيم أن رسل الله الكرام إبراهيم واسماعيل ومحمداً وغيرهم من الرسل الألى حجوا البيت عليهم صلوات الله وسلامه لم يقبلوا موضعاً في الأرض ولا في نفسها غير الحجر الأسود ، وتأسياً بهؤلاء الرسل الكرام يقبله ملايين الحجاج من عهد إبراهيم إلى عهدنا ، وسيستمر الناس فى تقبيله إلى أن يرث الله الأرض .

وأول عدوان على الحجر بعد عدوان القرامطة لعنهم الله عدوان رجل رومي تظاهر بالإسلام ودخل مكة وذلك سنة ٣٦٣ هـ .

فذات يوم من أيام هـذه السنة كـان هذا الرومي اللعين يطوف في القيلولة بالكعبة وما ثم طائف غيره وإلا آخر من شدة الحر ، وإذا هذا الرومي يحمل معولاً وينقض به على الحجر يضربه ضربة شديدة ، ورفع

معوله للمرة الثانية يريد أن يهوي عليه فإذا يمني يبادر بخنجر معه يطعنه به طعنة نجلاء تلقيه أرضاً ، فيسرع من كان بالمسجد الحرام فإذا هذا الباغي رومي جاء من أرض الروم – كما ذكر صاحب كتاب اتحاف الورى الذي اعتمدنا عليه في هذه الرواية نقلاً عن كتاب الشيخ حسين عبد الله باسلامه– واعتدى على الحجر تلقاء مال كثير أخذه من باعثيه .

وأخرج الرومي الأثيم من المسجد الحرام ، وجمع له حطب وأحرق بالنار جزاء عدوانه .

وفي سنة ٤١٤ وقع عدوان على الحجر ، فقد ذكر ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ في كتابه « الكامل » في حوادث سنة ٤١٣ ما نصه :

« في هذه السنة كان يوم النفر الأول يوم الجمعة ، فقام رجل من مصر بإحدى يديه سيف مسلول ، وفي الأخرى دبوس ، بعدما فرغ الإمام من الصلاة فقصد ذلك الرجل الحجر الأسود وكأنه يستلمه فضرب الحجر ثلاث ضربات بالدبوس وقال : إلى متى يعبد الحجر الأسود ومحمد وعلي ؟ فليمنعني مانع من هذا فإني أريد أن أهدم البيت ، فخاف أكثر الحاضرين وتراجعوا عنه ، وكاد يفلت ، فثار به رجل فضربه بخنجر فقتله ، وقطعه الناس وأحرقوه ، وقتل ممن اتهم بمصاحبته جماعة وأحرقوا ، وثارت الفتنة ، وكان الظاهر من القتلى أكثر من عشرين رجلاً غير ما اختفى منهم ، وألح الناس ذلك اليوم على المغاربة والمصريين بالنهب والسلب وعلى غيرهم في طريق منى إلى البلد ، فلما كان الغد ماج الناس واضطربوا وأخذوا أربعة من أصحاب ذلك الرجل فقالوا : نحن مئة رجل ، فضربت أعناق هؤلاء الأربعة ، وتقشر بعض وجه الحجر من الضربات ، فأخذ ذلك الفتات وعجن باللُّك وأعيد إلى موضعه » .

وأما ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ فقد قال في كتابه «البداية والنهاية» في حوادث سنة ثلاث عشرة وأربعمئة :

« فيها جرت كائنة غريبة عظيمة ، ومصيبة عامة ، وهي أن رجلاً من المصريين من أصحاب الحاكم اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء ، وذلك أنه لما كان يوم النفر الأول طاف هذا الرجل بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود جاء ليقبله فضربه بدبوس كان معه ثلاث ضربات متواليات وقال : إلى متى نعبد هذا الحجر ؟ ولا محمد ولا علي يمنعني مما أقدمت فإني أهدم اليوم هذا البيت ، وجعل يرتعد فاتقاه أكثر الحاضرين وتأخروا عنه ، وذلك لأنه كان رجلاً طوالاً جسيماً أحمر اللون أشقر الشعر ، وعلى باب الجامع جماعة من الفرسان وقوف ليمنعوه ممن يريد منعه من هذا الفعل وأراده بسوء ، فتقدم إليه رجل من أهل اليمن ومعه خنجر فوجأه به ، وتكاثر الناس عليه فقتلوه وقطعوه قطعاً وأحرقوه بالنار ، وتتبعوا أصحابه فقتلوا منهم جماعة الخ » .

وذكر تقي الدين الفاسي المتوفى سنة ٨٢٣ هـ في كتابه « شفاء الغرام »[1] ١٩٤/١ الحادثة سنة ٤١٣ وأشار أن ابن الأثير ذكرها سنة ٤١٤ هـ .

وذكر السنجاري في كتابه « منائح الكرم »: أن « في عشر التسعين وتسعمئة جاء رجل أعجمي بدبوس في يده فضرب الحجر الأسود ، وكان الأمير ناصر جاوش حاضراً فوجأ ذلك الأعجمي بالخنجر فقتله، فأراد العجم المجاورون بمكة أن يقتادوا منه وزعموا أن ذلك الأعجمي شريف، فحال بينه وبينهم القاضي حسين المالكي ومنعهم[2] » .

وآخر حادثة وقعت حادثة حاج أفغاني يسمى «عبد الستار الأفغاني» قدم للحج سنة ١٣٥٠ هـ واقتلع قطعة من الحجر الأسود سرقها ، كما سرق قطعة من كسوة الكعبة وأخرى من سلمها ، ورآه بعض حرس المطاف

---

١ التزم نشره وتوزيعه مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة سنة ١٣٧٥ هـ .

٢ تاريخ الكعبة المعظمة ، تأليف الشيخ حسين باسلامة ، وتحقيق الشيخ عمر عبد الجبار رحمهما الله ، الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) .

وقبضوا عليه ، وأخذ منه ما سرق ، وكان أعظمه فلذة الحجر ، وحوكم شرعاً ، وأفتى علماء الاقطار الإسلامية والبلاد السعودية بقتله ، فقتل علانية في شهر المحرم سنة ١٣٥١ هـ .

ولم يكن هذا المعتدي على الحجر بسوء نية كما زُعِم ، فقد زعم أنه أخذ ما أخذ تبركاً .

وحضرت إعدامه ، وقد كنت حينئذ طالباً بالمعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة ، وسألت بعض شيوخي من أهل العلم فأفتوا بقتله .

وأما الفلذة التي اقتلعها هذا الأفغاني فقد أعيدت إلى موضعها ، وثبتت تثبيتاً بمعجون خاص .

أما آخر عدوان على الكعبة المشرفة فقد حدث من جنود الترك ، وهو ما وعدت في هذا الفصل بذكره في خاتمته .

وقد روى لي والدي عبد الغفور عطار المكي أنه حضر نهضة الشريف الحسين بن علي حاكم مكة المكرمة وثورته على حكم الاتراك التي اعلنها فجر يوم السبت التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤ هـ (٥ يونيو / حزيران ١٩١٦ م) وذكر لي ما يؤيد صحة ما جاء في منشور الشريف الحسين الذى وزعه على الشعب الحجازي والعالم العربي والإسلامي، وكان تاريخه يوم ٢٥ شعبان ١٣٣٤ هـ (٢١ يونيو ١٩١٦ م) .

وجاء في المنشور[١] : « وحسبنا برهاناً على ما تكنه صدورهم نحو الدين والعرب رميهم للبيت العتيق الذي أضافته العزة الأحدية لذاتها السبحانية في قوله تعالى : ﴿ وطهر بيتي للطائفين ﴾ وهي قبلة المسلمين وكعبة الموحدين بقنبلتين من قنابل مدافعهم أثناء قيام البلاد بالمطالبة

---

١ صقر الجزيرة للمؤلف ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٤٢ .

باستقلالها ، وقعت احداهما فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف ، والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة اذرع ، والتهبت بنارها أستار البيت حتى هرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب ، واضطرهم الحال إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهيب، وما انتهى أمرهم بهذا حتى عززوا الاثنتين بثالثة في مقام إبراهيم ، عدا ما وقع منها في بقية المسجد الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص ، وما زالوا يقتلون الثلاثة والأربعة في نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد القرب من البيت » .

وبدأ ضرب جنود الأتراك للكعبة والمسجد الحرام من قلعة جياد المقامة على الجبل بعد عصر يوم السبت ٢٣ شعبان ١٣٣٤ هـ .

وكل ما جاء في منشور الشريف الحسين حق وصدق وواقع ، ولم يستفز أي أحد جنود الترك المحصنين بالقلعة . فهم ابتدأوا الضرب منتهكين حرمة الكعبة والمسجد الحرام ومكة المكرمة التي هي كلها حرم لا يجوز القتال فيه .

وذكر الشيخ حسين باسلامه في كتابه « تاريخ الكعبة المعظمة » في طبعته الثانية – وهو مذكور بالطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هـ – مسوغاً لضرب جنود الترك الكعبة والمسجد الحرام فقال (ص ٣٤٠) :

« وسبب ذلك أن الشريف الحسين وضع من رجاله أناساً في بعض منائر المسجد الحرام وصاروا يطلقون من بنادقهم على القلعة المذكورة فقابلوهم بإطلاق المدافع التي وقعت مقذوفاتها على بعض قباب المسجد الحرام واحترق من شظاياها ثوب الكعبة » .

وما ذكره الشيخ باسلامه غير صحيح ، فما كان على منائر المسجد الحرام مسلحون ، بدليل أن أي منارة لم تصبها قذيفة ، ولو صح أن

اطلاق الرصاص من المنارات لقذفوها هـي نفسها ، ولكنهم قذفوا الكعبة الشريفة .

وسألت من حضروا من المسنين فنفوا ما ذكر الشيخ باسلامه — رحمه الله وغفر له — وذكروا أن الحسين لم يجعل رجاله في منارات المسجد الحرام يطلقون الرصاص على قلعة جياد ، ولم يستخدم الحسين رحمه الله المنارات والمسجد الحرام أداة حرب .

الكسوة في اللغة

الكسوة ، بكسر الكاف وضمها وسكون السين : ما يتخذ من الثياب للستر والحلية ، والجمع : كُسا ، بضم أوله على وزن تُقى ، والفعل منه : كسا يكسو ، والمصدر : كَسْوٌ ، بفتح الكاف وسكون السين.

تقول : كسوت الكعبة أكسوها كسواً : ألبستها الكسوة ، وهي ما ترتديه للستر والحلية .

والكساء ، بكسر الكاف : اللباس ، وجمعه أكسية .

والكسوة في هذا البحث هي ما تكسى به الكعبة المشرفة .

كسوة الكعبة
في عهد ابراهيم واسماعيل

عندما رفع إبراهيم وإسماعيل على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام قواعد الكعبة المشرفة بيت الله المحرم عاد إبراهيم إلى فلسطين ، وبقي إسماعيل بمكة بجوار الكعبة ، فهو إمامها الأول بعد عودة أبيه ، وهو صاحب زمزم ، وقد اشترطت أمه على قبيلة جرهم التي أقبلت على الماء عندما استأذنوها في السكن ألا حقٌ لهم في الماء فقبلوا .

وليس معنى حقها في الماء ألا تعطي أحداً منه شيئاً أو تمنعهم السقي ، بل حقها أن تكون السقاية لها ، فرضوا ، وطبيعي أن تنتقل منها إلى ابنها الذي أصبح فيما بعد إماماً لهذه الكعبة .

ولم يرد نص صحيح أن إبراهيم كسا الكعبة ، وأحسب أنه لم يكسها ، لأنه غادرها بعد البناء إلى فلسطين ، وبقي إسماعيل يقوم بالإمامة والدعوة إلى الله وسدانة البيت وشؤونه .

وما ثَمّ نص صحيح على أن إسماعيل كسا البيت ، ووردت رواية تناقلها كتاب السير والمؤرخون فحواها أن إسماعيل عليه الصلاة والسلام أول من كسا الكعبة المشرفة .

ونحن لا نستطيع أن ننفي هذه الرواية ، لأنه من الجائز عقلاً أن يكون قد كساها ، فترك الكعبة عارية لا يسر الناظرين إليهـا ، فإذا كساها فذلك طبيعي .

وذكر بعض العلماء أن إسماعيل أول من كسا الكعبة مطلقاً ، وإذا صحت هذه الرواية فمن الطبيعي أن يكون أحد اثنين هما أول من بنى الكعبة هو أول من كساها .

ومن الجائز – كما قلنا – أن يكون إسماعيل أول من كساها ، لأن ذلك يكاد يكون طبيعياً بمن بنى الكعبة وصار إمامها وسادنها وسيد مكة .

الكسوة بعد اسماعيل

مضت بعد إسماعيل أجيال وقرون والكعبة قائمة ، إلا أن التاريخ كان صفحة بيضاء غير مكتوبة فيما يختص بالكسوة ، فلم يذكر أحد عن الكسوة شيئاً إلى عهد عدنان بن أد — جد النبي ﷺ — وجاءت رواية كالرواية عن إسماعيل في كَسْوه الكعبة ، وإن كان ما ورد عن إسماعيل جائزاً .

أما الرواية التي تذهب إلى أن عدنان بن أد أول من كسا الكعبة فموضع نظر في هذه « الأولية » التي ذكرها مؤرخون ذكراً غير موصول تاريخياً بعصر عدنان ، وإنما هو مقطوع ذكر بأُخَرَةٍ ، أي في عصور متأخرة بعد الإسلام .

وما ثَمَّ ما يؤكد مصدر هذه الرواية التي نذكرها ، لأنها وردت في بعض الروايات والكتب .

وإذا صح أن عدنان بن أد كساها ، وأنه كان أول الكاسين فإن عدنان يكون أول من كساها بعد إسماعيل .

ويجوز أن الكعبة كانت عارية في عهد عدنان فكساها ، فكان أول من كساها بعد إسماعيل .

وقيل : إن الكعبة كسيت في عهد عدنان ، وهي رواية تضاف إلى رواية أنه أول من كساها .

وإذا عرفنا أن بيت الله كان مقدساً لدى العرب ، ولم يخل عصر من المؤمنين الموحدين على ملة إبراهيم فإننا لا نستبعد أن تكون الكعبة مكسوّة ، لأن كسوها من الأعمال الصالحة التي يقوم بها الناس في جميع العصور وفي كل الديانات التي تعنى بمعابدها وآلهتها .

وعلى أي حال ذكرنا هذه الرواية عن عدنان ، لأنها مذكورة في الكتب ، وإن كنا لا نقطع بالصحة ولا نجزم بالنفي .

أسعد ملك اليمن
أول من كسا الكعبة في الجاهلية

في كتاب « الأوائل » لأبي هلال العسكري[1] تحت عنوان « أول من كسا البيت » :

قال الواقدي : « حدثني حزام بن هشام عن أبيه قال : نهى رسول الله ﷺ أن يُسَبَّ أسعد الحميري ، وهو تبع ، وقال : إنه أول من كسا البيت ، وزاد غيره فقال : هو أبو كرب ، وهو أول من جعل للبيت مفتاحاً ، وقال :

وكسونا البيت الذي حرم الله ... ه ملاء معضدا وبرودا
ونطاعا من الخصاف فرشنا ... وجعلنا لبابه إقليدا

وفي « تاريخ مكة » للأزرقي ، طبع مكة المكرمة ١ / ١٦٥ – ١٦٦ :
« حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن محمد بن إسحاق قال : بلغني عن غير واحد من أهل العلم أن أول من كسا الكعبة كسوة كاملة تُبَّع وهو أسعد الخ » .

---

١ طبعة ونشره السيد أسعد طرابزوني الحسيني ، مطبعة دار أمل ، طنجه ، المغرب .

وعن مصادر أخرى مثل « سيرة ابن هشام » وغيره ، قد ذكر أن أول من كسا الكعبة كاملة هو تُبَّع أبو كَرِب أسعد ملك حمير كان هو وقومه عن عبدة الأوثان ، — وعند منصرفه من غزو « يثرب » — وكان بينه وبين مكة بضع مراحل — جاءه نفر من هذيل فقالوا له : أيها الملك ، ألا ندلك على بيت داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ، ويصلون عنده .

وأراد الهذليون هلاك أبي كرب أسعد لما يعلمون من هلاك من يقصد بيت الله بسوء .

ولما أراد ملك حمير — هذا — التوجه إلى مكة أرسل إلى حبرين يعرض عليهما ما سمع من الهذليين ، وسألهما فأجاباه : أن هؤلاء ما أرادوا إلا هلاكه وهلاك جنده ، وما يعلمان لله بيتاً اتخذه لنفسه في الأرض غيره ، ثم قالا له : لئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن أنت ومن معك .

قال الملك : ماذا تأمرونني أن أصنع إذا قدمتُ عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله ، تطوف به وتعظمه وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذل له حتى تخرج من عنده ، قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله ، وبالدماء التي يهرقون عنده ، وهم نجس أهل شرك .

وعرف تبع صدق ما قالا ، فعاقب الهذليين ، وأخذ بما نصح الحبران ، ومضى إلى مكة طائعاً ، فطاف بالبيت ، ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ينحر ويطعم .



اناس يدعون الله
تحت باب الكعبة المشرفة

ونسبوا إليه هذه الأبيات الثلاثة :

وكسونا البيت الذي حرم اللـ ـهُ ملاء معضدا وبرودا

وأقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لبابه إقليدا

وخرجنا منه نؤمُّ سهيلا قد رفعنا لواءنا معقودا

وهذا الشعر – كما نرى – مصنوع ومنحول ، لأنه لم يصل إلى من رووه بوساطة رواة ، وأسلوبه يدل على أنه ليس من الشعر الجاهلي القديم ، ولكن محتوى الأبيات الثلاثة مشروح فيما روي عن كسوة الكعبة ، فهي – إذن – خلاصة لما صنع ، نحلها إياه ناظم .

والشيء الذي اتفق عليه كتّاب السير والمؤرخون أن أسعد ملك حمير هو أول من كسا الكعبة بعد أن زار مكة ، ودخلها دخول الطائفين . وجاء في « مروج الذهب » للمسعودي ٢/٤٩ طبعة دار الأندلس بيروت سنة ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) :

« ثم ملك بعده تبع بن حسان بن كليكرب[1] ، وهو الملك السائر من اليمن إلى الحجاز ، وكانت له مع الأوس والخزرج حروب ، وأراد هدم الكعبة فمنعه من كان معه من أحبار اليهود ، فكساها القصب اليماني » .

وفي بعض النسخ : « أبو كرب » بدل « كليكرب » و « يثرب » بدل الحجاز .

---

١ ليس تبع بن حسان بن كليكرب هو الذي دخل مكة وكسا الكعبة ، وإنما هو أسعد ، وحسان ابن كليكرب هو ابن أسعد ، ففي « الكامل » لابن الأثير الجزري ١/٢٤٤ – ٢٤٥ نشر ادارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٨ هـ بالقاهرة :أن حسان هذا هو ابن أسعد أبو كرب بن ملكيكرب ، وتبع بن حسان على رواية المسعودي يكون حفيد اسعد ، وليس الحفيد هو الذي دخل مكة وإنما هو جده أسعد .

وذكر المسعودي أن تبع بن حسان غادر مكة إلى اليمن ، واعتنق اليهودية التي غلبت على اليمن ، وكان من أثر زيارتـه لمكة تركه هو ومن معه عبادة الأصنام .

وذكر محمد لبيب البتانوني في كتابه « الرحلة الحجازية » طبعة مطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ الطبعة الثانية ، صفحة ١٣٤ : أن ملك حمير غزا يثرب قبل هجرة النبي ﷺ بعشرين ومئتي سنة ، وذكر غيره أن زيارته لمكة وكسوه الكعبة كانتا منذ قرنين قبل الهجرة النبوية الشريفة .

وجاء في روايات الاخباريين وكتب التاريخ أن ملك حمير دخل مكة طائعاً وعمل ما يعمل الحاج من النسك .

ويروى أنه أُرِيَ في المنام أنـه يكسو الكعبة فكساها الخصف وهو نسيج من الخوص والليف ، وقيل : ثياب غلاظ .

ثم أُرِيَ أنه يكسوها أحسن من ذلك فكساها بروداً معافرية تنسب إلى قبيلة معافر اليمنية ، ، ثم أُرِيَ أن يكسوها أحسن ، فكساها الملاء والوصائل ، والملاء جمع مُلاَءة ، وهي الملحفة ذات اللِّفْقَين ، واللفق من الملحفة الشق أو القطعة مضمومة إلى أخرى ، والوصايل : ثياب حمر مخططة يمنية ، أو ثياب حبرة من عصب اليمن ، وهو ما يجمع غزله ويشد ثم يصبغ .

وأسعد – هذا – أول من عمل للكعبة باباً ومفتاحاً ، واستمر في كَسْو الكعبة ، ولم ينقطع ، وخلفاؤه كانوا يكسونها بعده بالجلد والقباطي ، وهو جمع قُبطية (بضم القاف) : ثوب أبيض رقيق من نسج مصر كأنه منسوب إلى القبط .

ثم أخذ الناس يكسونها ويهدون إليها من الكسى المختلفة ، ويلبسونها

الكعبة بعضها على بعض ، كلما بلي ثوب وضعوا عليه آخر جديداً حتى تراكم الأثواب بعضها فوق بعض .

وكان يجتمع لدى سدنة البيت وولاته من الجلود والثياب كثير مما يهدى إلى الكعبة فيحتفظون به ، فإذا بلي ثوب نزعوه واستبدلوا به من خزانة ثياب الكعبة ثوباً جديداً ، وهكذا ، وكان بين الهدايا طيب يطيبونها به من الداخل والخارج ، وبقي هذا التطييب متوارثاً حتى اليوم .

ومنذ تبع أسعد لم تظهر الكعبة بغير كسوتها التي عُنِيَ بها الناس على اختلاف طبقاتهم .

قصي والكعبة

قُصَي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ ، وكان من سادة العرب، وانتهى إليه الشرف كله ، فكانت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، وولي أمر الكعبة ومكة ، وصار ملكاً على أهلها .

وقصي هو الذي جمع قبائل قومه تحت علم واحد ، وأعادهم إلى مكة فهم أهلها ، وقد افتخر قصي بأن قريشاً قرعة إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده ؛ فهم أولى بمكة والبيت من خزاعة وبني بكر ، فحاربهم وانتصر عليهم ، وعاد الحق إلى أهله بعد أن سلبهم إياه المغتصبون ، فذرية إسماعيل هم حماة الكعبة وخدمها وسدنتها ، وقد عادت إلى قصي مع كل الوظائف الدينية : السلطة والحكومة .

وقد قيل في مدح قصي :

قُصَيٌّ لعمري كان يدعى مُجَمِّعاً   بـه جمع الله القبائل من فهر
هموا ملأوا البطحاء مجداً وسؤدداً   وهم طردوا عنا غواة بني بكر

وكان أبناء قصي ذوي شرف باذخ وسمعة طيبة ، وهم عبد مناف ، وعبد شمس ، وعبد العزى ، وعبد الدار الذي انتهت إليه الرئاسة .

يقول ابن كثير في تاريخه العظيم « البداية والنهاية » ٢٠٩/٢ طبع مطبعة السعادة .

« ثم لما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه من رئاسات قريش وشرفها من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة إلى ابنه عبد الدار » .

ومن بني عبد الدار الذين هم حجبة الكعبة بنو شيبة بن عثمان بن طلحة حجبة الكعبة وسدنتها المعروفون في العصور القريبة منا حتى عصرنا هذا بآل الشيبي[1] نسبة إلى شيبة بن عثمان بن طلحة .

ولم تكن الكسوة في عهد قصي – واسمه زيد بن كلاب – من نصيب فرد أو قبيلة ، ولم تكن لها إدارة تتولاها إلا الحجابة التي كان من مهامها تسلم هدايا الكعبة من ثياب وطيب ، دون أن يكون من أعمالها صنع الكسوة .

فلما كان عهد قصي أراد أن يضبط أمر الكسوة ، فعرض على القبائل أن يترافدوا – أي يتعاونوا – فيما بينهم ، كلٌّ حسب قدرته في كسو الكعبة المشرفة وفي غيره مثل السقاية ، فكانت الكسوة ثمرة الرفادة ، وهي المعاونة تشترك فيها القبائل حتى ظهر أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم – جد الشاعر المشهور عمر بن أبي ربيعة – .

وكان أبو ربيعة تاجراً ذا مال كثير بسبب اختلافه إلى اليمن ، يتجر بها حتى زاد ثراؤه ، وكثر ماله ، وكان يجلب من اليمن إلى مكة الثياب وغيرها .

---

١ وسادن الكعبة المشرفة اليوم (الاثنين ٢٤ ربيع الأول ١٣٩٧ هـ/١٤ مارس ١٩٧٧ م) هو الشيخ أمين عبد الله شيبي .

ورأى أبو ربيعة أن يشارك في كسوة الكعبة ، دون أن يشترك معه غيره ، بل يتفرد وحده بكسوتها سنة بعد سنة ، واتفق مع قريش أن تكسو الكعبة سنة ، وأن يستقل وحده بكسوتها سنة ، وتم الاتفاق على ذلك ، فكانت قريش كلها تكسوها سنة ، وهو وحده يكسوها سنة .

وكان هذا العمل منه موضع إعجاب الناس وقدرهم إياه حتى سموه « العِدْل » لأنه عدل بعمله وحده عمل قريش كلها .

وممن تفرد بكسوة الكعبة نتيلة بنت حباب زوج عبد المطلب ، وأم العباس ، فقد ضاع ابنها العباس – وقيل : ابنها ضرار بن عبد المطلب – ونذرت لله أن لتكسونّ الكعبة وحدها إذا أعاد إليها ابنها الضائع فعاد فوفت بنذرها ، فكانت أول امرأة بالتاريخ كست الكعبة وحدها .

ويروى أنها كستها الديباج ، وقيل : إنها كستها ثياباً بيضاً ، وإذا صحت الرواية الأولى تكون أم سيدنا العباس رضي الله عنه أول من كساها الديباج .

وكل ذلك يدل على أن كسو الكعبة من القربات والمفاخر التي يتنافس عليها المتنافسون ، وكان مباحاً لكل أحد أن يكسوها إذا أراد ومن أي نوع من الكسي رغب ، إذ لم يكن لكسوة الكعبة طراز خاص يلتزم به من يكسونها ، بل يكسوها الناس فرادى أو جماعة كما يتفق لهم ، فكانت الكسوة ذات ألوان مختلفة ، ومن نسيج وجلد ، ومن ستائر تسدل ، أو نمارق تعلق .

واهتمام العرب بالكسوة معروف ومشهود ، ينبىء عنه هذا التاريخ الذي ذكرناه موجزاً ، ففي الجاهلية كان العرب يهتمون بالكسوة وبتطييب الكعبة ونظافة المطاف والمسجد اهتماماً لا حدّ له ، لأنهم يرون ذلك فرضاً مقدساً يؤدونه تقرباً من الله جل جلاله بالاهتمام ببيته الحرام .

الكسوة في الإسلام

رسول الله يكسو الكعبة

ظهر الإسلام في مكة على يد رسوله الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ، واتخذ طريق الحكمة واللطف في الدعوة ، فإذا مشركو مكة يقاومون الرسول ودعوته ، ويحاربونهما هما والمسلمين ، وبلغ اضطهادهم مبلغاً لم يؤثر في تاريخ الديانات إلا نادراً ، فقد عذب المسلمون على أيدي المشركين عذاباً نكراً ، ومنعوهم من العبادة بين يدي الكعبة .

ولم يكن في وسع النبي ﷺ ولا في طوقة أصحابه المسلمين أن يكسوا الكعبة التي كان يسيطر عليها أولئك المشركون إلا بعد فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة .

لم يكن المسلمون قادرين قبل فتح مكة أن يكسوا الكعبة أو يشاركوا في كسوتها ، لأن اضطهاد مشركي مكة لم يدع للمسلمين ورسولهم الكريم حرية العبادة ، فهم لن يستطيعوا كسوها .

وكانت كسوة الكعبة خلال سنوات الدعوة الثلاث عشرة وبضع سنوات من الهجرة مما يقدمه غير المسلمين الممنوعين عن دخول مكة ، حتى إذا فتح الله مكة على يد رسوله الكريم الرؤوف الرحيم ، لم يغير الرسول ﷺ الكسوة ، بل تركها على حالها .

وجاءت امرأة – في عام الفتح – إلى الكعبة بمِجْمَر[1] تريد تجميرها – أي تبخيرها – وبينا هي تجمرها طارت شرارة إلى الكسوة التي كساها بها المشركون فاحترقت ، فعريت الكعبة ، فقام المسلمون بكسوها .

ومنذ عام الفتح حتى يومنا هذا تفرد المسلمون بكسوة الكعبة الجليلة زادها الله شرفاً وتعظيماً .

وكساها النبي ﷺ بالثياب اليمانية ، فإذا المسلمون من بعده يتأسونه عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ، ولا يكسوها غير المسلمين المؤمنين .

وعندما فتح الله مكة على يد رسوله كان مفتاح باب الكعبة عند عثمان بن طلحة ، وطلبه منه رسول الله ﷺ فأعطاه إياه ، فدخل الرسول الكعبة ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة ، ولبثوا بها وقتاً ، وصلى الرسول ودعا ثم خرجوا ، وأعاد المفتاح إلى عثمان بن طلحة ، وأبقى حجابة البيت له ، فهي في عقبه إلى يومنا هذا ، ولا يأخذ المفتاح منهم إلا ظالم .

ولم يذكر كتّاب السيرة النبوية الشريفة تاريخ كسوة الكعبة من قبل النبي ﷺ ، ولم أجد من حدده إلا الأستاذ عبد الله إبراهيم رجب من أدباء مكة وكتابها وشبابها الصالحين ، فقد ذكر في بحث له نشرته مجلة « البلاغ » الكويتية أنه يرجح أن يكون كسو الرسول ﷺ للكعبة كان في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة .

ونحن معه فيما ذهب إليه ولنا زيادة عليه سنذكرها ، فرسول الله ﷺ بعد هجرته من مكة إلى المدينة لم يستطع دخول مكة إلا في السنة السابعة ، فقد أراد العمرة في السنة السادسة ورده المشركون من المدينة ومنعوه

---

١ المجمر : وعاء توضع به النار والطيب من عود ونحوه للتجمير ، وهو التبخير .

عن دخول مكة ، وسمحوا له بأن يعتمر من قابل ، فدخل مكة معتمراً سنة سبع من هجرته الكريمة ، وقد حددوا له الإقامة بمكة ثلاثة أيام ، ولم يسمحوا له بأزيد منها ، حتى أنه رغب في الدخول على أم المؤمنين سيدتنا ميمونة بمكة ودعوة قريش إلى الوليمة فأبوا ، وذكروه بالعهد ، فغادر مكة .

ولم يستطع أن يكسو الكعبة في هذه الظروف وبخاصة أن السيادة على مكة كانت لقريش .

وهيأ الله سبحانه وتعالى لرسوله فتح مكة سنة ثمان من الهجرة ودخلها يوم العشرين من رمضان (يناير ٦٣٠ م) ولبث بها رسول الله أياماً حتى طهر الكعبة والمسجد الحرام ثم مكة كلها من الأوثان والأصنام ، وبلغ رسول الله ﷺ ما أعدت هوازن وثقيف لحربه فخرج من مكة يوم السبت ٦ شوال سنة ٨ هـ (٢٨ يناير ٦٣٠ م) وكانت غزوة حنين التي انتهت بالمسلمين بعد هزيمتهم إلى النصر المبين ، ونجا الفارون من هوازن وثقيف إلى الطائف وتحصنوا بحصونه تاركين في الميدان آلاف القتلى والجرحى والأسرى ، ومن الغنائم ما لا يحصى .

ورأى الرسول ﷺ أن يتعقبهم ، فغزا الطائف وحاصره ثم رأى أن يعود دون قتالهم رجاء أن يسلموا في المستقبل ، ونزل بالجعرانة ، واعتمر منها ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة ، وأدى نسك العمرة ، وعاد ليلته إلى الجعرانة .

عاد رسول الله إلى الجعرانة لخمس ليال خلون من ذي القعدة ، وأقام بها ثلاث عشرة ليلة ، وفي صباح يوم الأربعاء الثامن عشر من ذي القعدة غادر الجعرانة هو وصحبه عائدين إلى المدينة .

وفي هذه الظروف لم يكسُ الرسول ﷺ الكعبة ، ولم يرو أحد أنه كساها ، وإنما روي حادث المرأة التي جاءت تجمر الكعبة فاحترقت الكسوة ، وكساها المسلمون .

والمسلمون أيام فتح مكة لم يكونوا ليصنعوا شيئاً من تلقاء أنفسهم ، بل هم ينتظرون في كل أمر من أمور دينهم ودنياهم وبخاصة فيما يتصل بالكعبة والمسجد الحرام أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وطبيعي أن ينتظروا أمره في كسوة الكعبة بعد احتراقها .

فإذا ذكر المؤرخون أن المسلمين كسوا الكعبة بعد احتراق كسوتها فإنما هم كسوها بأمر رسول الله ﷺ ، وليس من تلقاء أنفسهم ، فهم لا يعرفون رأي الإسلام فيما يصنعون ، فهم حريون بانتظار ما يأمر به رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام .

وثابت أن الكعبة كسيت عام الفتح بعد احتراق كسوتها ، ونحن نرى أن الرسول ﷺ هو الذي كساها هذه الكسوة .

ومعروف أن الكعبة كانت تكسى غير مرة في السنة ، وطبيعي أن الكسوة في عهد النبي بأمره ، وكانت مستمرة في حياته ، وطبيعي أنها كسيت في السنة التاسعة وفي السنة العاشرة التي كانت فيها حجة الوداع وان لم يذكر ذلك المؤرخون .

والذي نراه أن رسول الله ﷺ كسا الكعبة منذ عام الفتح حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى صباح يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١ من هجرته الشريفة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

الكسوة
في عهد الخلفاء الراشدين

انتهى عهد الرسول ﷺ ، وبدأ عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان عهده امتداداً لعهد الرسول الكريم ، وكان من أعماله الجليلة أن قام بكسوة الكعبة الشريفة بالقباطى ، ولما تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة بعد أبي بكر بعهد منه كسا الكعبة بالقباطي .

وكان من مآثر سيدنا عمر و « أولياته » عمل الدواوين ، وضبط أمور الدولة التي جدّ فبها كثير مما لم يكن معروفاً في عهد صاحبيه ، وكان من هذه الأعمال الجديدة أن تكون كسوة الكعبة من بيت مال المسلمين .

ومن ذلك الحين صارت نفقات الكسوة على الحكومة إلا في سنوات معدودات كان يكسوها أفراد من الموسرين أو من ذوي المناصب الرفيعة أو حكام بعض الدول الإسلامية .

ومن أوليات أمير المؤمنين أنه كتب إلى مصر التي دخلت في عهده في الإسلام أن تحاك الكسوة في مصر ثم ترسل إلى مكة ، وكانت من القباطي ، وكانت الكسوة القديمة تنزع لترتدي الكعبة حلتها الجديدة ، فيوزع عمر الكسوة القديمة على الحجاج .

فلما تولى سيدنا عثمان بن عفان الخلافة بعد عمر رضي الله عنهما سار على سنة سلفه العظيم عمـر ، فكانت نفقات الكسوة من بيت المال مما يحاك في مصر ، وكان أول من قرر للكعبة كسوتين : الأولى بالديباج يوم التروية وهو يوم الثامن ذي الحجة ، والأخرى بالقباطي يوم السابع والعشرين من رمضان .

ولم يؤثر عن سيدنا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنـه كسا الكعبة ، وما كان ذلك تقصيراً منه ، فقـد كان مشغولاً بالحرب التي اجبر على خوضها من أجـل ضمان وحدة المسلمين ، وتقرير الحق والعدالة حتى قتل بالعراق .

وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب يكسو الكعبة من مالـه ، فكان يسلم شيبة بن عثمان بن طلحة سادن الكعبة القباطي من صنع مصر والحبرة من صنع اليمن ليكسو بهما الكعبة .

وقد ورد عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قولهـا : « كسوة البيت على الأمراء » .

ولا نعلم أهـذا القول مما أخذتـه عن رسول الله ﷺ أم هو اجتهاد منها ، ولعله من اجتهاداتها الحسنة ، وكان قولهـا وعمل عمر حجة لمن بعدهما ، رضي الله عنهما .

الكسوة
في عهد بني أمية

أفضت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ بعد أن بايعه سيدنا الإمام الحسن ابن الإمام علي كرم الله وجوههما ليحقن دماء المسلمين.

وتفرد معاوية رضي الله عنه بحكم المسلمين حتى دانت له كل أقطارهم، وازدحم بيت المال بالأموال، وتغير نظام الحكم في عهده عن نظام الحكم في عهد الراشدين رضوان الله عليهم.

وبقيت الكسوة من مهام الحكومة ينفق على صنعها من بيت المال سُنة عمر بن الخطاب التي سنها، فتبعه من جاءوا بعده.

وفي عهد معاوية وفي عهد الدولة الأموية كانت الكسوة من بيت المال، واهتم بها معاوية اهتماماً كبيراً، ويسرت له كثرة مال الدولة أن يتخذ للكعبة كسوتين اقتداء بسيدنا عثمان رضي الله عنه، وغيَّر تاريخ الكسوة: الأولى جعلها يوم عاشوراء، وهي من الديباج — كما زعموا — والأخرى من القباطي، وتكسى بها في آخر شهر رمضان المبارك.

ورواية من روى أن الكسوة الأولى من الديباج لا تثبت في الميزان، لأن هناك من ذكروا أن أول من كساها بالديباج سيدنا عثمان، وقيل: سيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وذكر آخرون أن أول من

كساها بالديباج الحجاج الثقفي المُقَبِّح ذكره ، وقال بعض العلماء : إنه كساها بالديباج بأمر عبد الملك بن مروان .

والذي نذهب إليه أن ابن الزبير أول من كسا الكعبة بالديباج وليس معاوية ذهاباً مع الذين ذكروا ذلك ، وهناك رواية تقول : إن أم العباس ابن عبد المطلب أول من كست الكعبة بالديباج .

ومن أوليات معاوية أنه خصص للكعبة المعظمة طيباً تطيب به بعد كل صلاة ، وكان يبعث بالطيب مرتين في كل عام : مرة في شهر رجب والأخرى في موسم الحج .

ومن أوليات معاوية تخصيص خدم للكعبة ، فقد بعث عبيداً يتفرغون لهذه الخدمة ، وصارت من بعد معاوية سنة متبعة ، وخُصص عبيد وموظفون للكعبة يخدمونها ، ولكن في أيامنا هذه (سنة ١٣٩٧ هـ) ومن قبل سنوات معدودات لا يتولى خدمة الكعبة إلا آل الشيبي وموظفون أحرار .

وجاء بعد موت معاوية ابنه يزيد سنة ٦٠ من الهجرة ، وبقي في الحكم إلى أن هلك في ربيع الأول من سنة ٦٤ هـ (نوفمبر سنة ٦٨٣ م) فكسا الكعبة بالديباج – كما زعموا – المصنوع في خراسان ، وكذلك كان يصنع سيدنا عبد الله بن الزبير ، فقد كان يكسو الكعبة من الديباج الخسرواني .

وعندما تولى الحكم عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٧٣ هـ) كان يكسو الكعبة بالديباج الخراساني ، ويمر حاملو الكسوة بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ويعرضونها بحرمه الشريف يوماً ، ومعها الطيب للحرمين ، ثم تطوى بعد العرض وتحمل إلى مكة .

واستمر خلفاء بني أمية يكسون الكعبة المعظمة حتى دالت دولتهم ، فانتقل الأمر إلى بني العباس .

كسوة

عبد الله بن الزبير

عندما بويع ليزيد بالخلافة لم يكن أهلاً لحكم المسلمين ، فقد كان فاسقاً شريراً سكيراً ، وخرج عليه عبد الله بن الزبير ، ولم يبايع ، ودعا لنفسه فبايعه أهـل مكة والحجاز ، وكان له شيعة في العراق ، فجرد يزيد لضرب أهل المدينة وأهل مكة جيشاً عرمرماً جعل قيادتـه لمسلم بن عقبه المُرِّي ومعه جيش الشام حتى أثخنوا في مدينة الرسول ﷺ قتلاً وذبحاً ، واستباحوا حرم رسول الله بأمر الفاسق يزيد ، فانتهكوا أعراض بنات الصحابة والتابعين ، ونهبوا الأموال ، وخير قائد يزيد من بقي من أهل المدينة بين أن يكونوا خـَوَلاً[1] ليزيد أو السيف ، فاختار بعضهم الموت ، واضطر كثير أن يرضوا بأن يكونوا خولاً ليزيـد يحكم في أموالهم وأنفسهم مخافة القتل .

وبعد انتهاك حرم رسول الله أقبلوا على حـرم الله ، فتصدى لهـم عبد الله بن الزبير بجيشه ، وكان المجرم الأثيم مسلم المري مستبيح المدينة قد هلك بشلل أصابه فتولى إمرة الجيش الحصين بن نمير كما أمر يزيد ،

---

[1] الخول : العبيد والإماء ، ويطلق على المفرد والمثنى والجمع .

وتحارب الجيشان ، وتراجع ابن الزبير إلى مكة في شهر المحرم سنة ٦٤ هـ وما تزال الحرب دائرة بينهما بقية المحرم وصفر كله وثلاثة أيام من ربيع الأول ، ورموا مكة بالمنجنيق ، وجاء النبأ بهلاك يزيد فوقف القتال ، وتولى مروان بن الحكم ، ولم يكن له أمر إلا على الشام ومصر ، أما بقية الأقطار فكانت في يد غيره .

وادان لابن الزبير الحجاز ، ودان له العراق وبعض أمراء البلدان ، وهلك مروان في رمضان سنة ٦٥ هـ وعهد لابنه عبد الملك بالخلافة ، فأخضع العراق لحكمه ، وجند جيشاً عظيماً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي لمحاربة ابن الزبير .

وابن الزبير أول مولود للمهاجرين في دار الهجرة ، وفرح بولادته المسلمون فرحاً عظيماً ، لأن اليهود زعموا أنهم سحروا المسلمين فلا يولد لهم ولد ، ولهذا كان فرحهم بمولده عظيماً ، لأنه ظهر به كذب اليهود ، أرادوا منه أن يحطموا نفوس المسلمين .

وحنكه رسول الله ﷺ نفسه ، فقد جاءت به إليه أمه أسماء ووضعته في حجره ، فأتى رسول الله ﷺ بتمرة ومضغها ثم تفل في فم ابن الزبير ، فكان أول شيء دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ وسماه عبد الله مثل جده لأمه وكناه بكنية أبي بكر .

وهو صحابي ابن صحابي من جلة صحابة رسول الله ﷺ ، أبوه الزبير حواري رسول الله ، وأحد المبشرين العشرة بالجنة ، وجده لأمه أبو بكر سيد المسلمين ، وإمام المتقين ، وثاني اثنين في الغار ، صاحب رسول الله في الحضر والسفر ، ولا تنقضي مناقبه ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وأبوه الزبير عديل رسول الله ، وأمه أسماء بنت أبي بكر التي سماها رسول الله ذات النطاقين ، وهي مبشرة بالجنة ، وخالته أم المؤمنين عائشة .

هـذا هو عبد الله بن الزبـير نور انبثق من أنوار ساطعة ، وكان صواماً قواماً براً صالحاً غيوراً على دين الله ، ودفعته غيرته إلى أن يمتنع من مبايعة يزيد بن معاوية بالخلافة ، فهو ليس لها بأهل ، وقد بويع ابن الزبير من أهل مكة والحجاز بالخلافة وغيرهما من أقطار الإسلام إلا الشام والعراق .

ولما حاربه الحصين بن نمير وضرب المسجد الحرام بالمنجنيق أصابت بعض حجارة المنجنيق الكعبة فتصدعت واحترقت كسوتها ، وهلك يزيد ورجع جيش الشام إلى الشام ، وتولى مروان بن الحكم الخلافة ولم يدن له غير الشام ومصر ، وبقيت الأقطار الأخرى تحت حكم ابن الزبير ، وهو للخلافة أهل دون مروان الذي كان سبب الفتنة التي فرقت كلمة الإسلام .

واستقل ابن الزبير بالحجاز ، ورأى الفرصة سانحة لبناء البيت على قواعد إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بعد أن تصدعت جدران الكعبة من قذائف منجنيق أهل الشام .

وقرر ابن الزبير أن يعيد بناء الكعبة المشرفة على أساس إبراهيم ، وذلك لما سمعه من خالته الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها إذ قالت : إن رسول الله ﷺ قال لها : « يا عائشة ، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم ، فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض ، وجعلت له بابين : باباً شرقياً ، وباباً غربياً ، فبلغت به أساس إبراهيم » .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً ، وزدت فيه ستة أذرع من الحجر ، فإن قريشاً استقصرتها حين بنت الكعبة فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي

لأريك ما تركوا منه » فأراها نحواً من سبعة أذرع ، أخرجه الشيخان في صحيحهما .

وهذا من دلائل النبوة ، فالرسول ﷺ قد أعلمه الله بما سيجري من بناء الكعبة من بعده ، وعلم أن ذلك سيكون قريباً ، فأرى عائشة ما يجب أن يدخل فيها مما لم تستطع قريش إدخاله فيها لقصور في النفقه .

وعلم ابن الزبير من خالته بذلك فهدم الكعبة حتى انتهى الى أساس إبراهيم ، ثم أقام البناء ، وكان قد بدأه سنة ٦٤ هـ وانتهى منه سنة ٦٥ هـ .

ولما أتم بناءها كساها الديباج ، وطيبها بأحسن الطيب ، وكان يطيب الكعبة كل يوم برطل من الطيب ، ويوم الجمعة برطلين ، وما زال يكسو الكعبة كل سنة ويطيبها كل يوم حتى استشهد في سنة ٧٣ هـ .

رحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه الفردوس الأعلى .

الكسوة في عهد العباسيين

في سنة ١٣٢ هـ دالت دولـــة الأمويين وبرزت دولة العباسيين بتولي أبي العباس السفاح عبد الله بن محمـــد العباسي ، وتوالى بعده خلفاء بني العباس حتى انتهى أمرهم سنة ٦٥٦ هـ .

وخلال مدة حكمهم كانت عنايتهم بالكسوة عظيمة إلى حد بعيد ، ولم نفتقد هذه العناية عند من سبقوهم ، ولكن تطور فن النسج والحياكة والصبغ والتلوين والتطريز والطلاء بماء الذهب والفضة جعل الخلف يصلون إلى ما لم يصل إليه السلف الذين رجحوا في الايمان والاخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين ودينهم الحق عن غيرهم .

وبلغ من اهتمام الخلفاء العباسيين بالكسوة أن يبحثوا عن خير مـــن يحسنون صناعة النسيج والحياكة فوجدوا « تنيس » المدينة المصرية التي اشتهرت في المنسوجات الثمينة الرائعة شهره عظيمة ، فوقـــع اختيارهم عليها ، وصنعوا بها الكسوة الفاخرة من الحرير الأسود على أيدي أمهر الحاكة والنساجين .

وكانت قرية « تونة » من أعمال مدينة « تنيس » مشهورة بمـــا اشتهرت به مدينة تنيس ، فكانت الكسوة تصنع بها أيضاً .

وتولت مصر صنع الكسوة منذ عهد بعيد ، فكـان في العهد الجاهلي

تكسى الكعبة من القباطي ، وهي من نسيج مصر ، وكذلك كان في العصر الإسلامي .

ولما تولى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة أمر أن تحاك الكسوة في مصر ، ومنذ ذلك الحين استأثرت مصر بصنع الكسوة ، وان كان في بعض الأوقات تكسى بالديباج الخراساني .

ولم يستطع أي بلد أن ينتزع من مصر شرف صنع الكسوة الشريفة إلا مكة المكرمة حرسها الله في عهد الملك عبد العزيز فابنه الملك فيصل رحمهما الله ، ثم الملك خالد بن عبد العزيز مد الله في عمره ، حيث أخذت مكة تصنع كسوة كعبتها صناعة فاقت صناعة مصر بفضل الله وتوفيقه .

وكان خلفاء بني العباس موفقين في اختيار تنيس وتونه لنسج الكسوة وحياكتها ، وتطورت صناعة الكسوة في زمنهم تطوراً قد أوفت فيهـا على التمام .

وقد ذكر الفاكهي في كتابه « أخبار مكة » أنه رأى كسوة من كسى الكعبة مكتوباً عليها : « بسم الله ، بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع من طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومئة » .

وذكر الفاكهي أنه رأى كسوة مكتوباً عليها : « بسم الله ، بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل من طراز تونه سنة تسعين ومئة » .

وكانت الكعبـة تكسى مرتين ، وصارت في عهد الخليفة العباسي المأمون تكسى ثلاث كسى ثلاث مرات في السنة ، وذلك بأمره ، وبدأ سنة ٢٠٦ هـ .

الكسوة الأولى من الديباج الأحمر ؛ وتكساها يوم التروية ، وهو يوم الثامن من ذي الحجة .

والثانية من القباطي ، وتكساها غرة رجب .

والثالثة من الديباج الأبيض ، وقد أحدثه المأمون ، تكساها يوم السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك .

وكانت هذه الكسى الثلاث تكساها الكعبة المشرفة منذ عهد المأمون وما بعده ، حتى أن الأزرقي ذكر في كتابه « أخبار مكة » أنه رأى الكسى الثلاث ، وختم كتابه سنة ٢٤٤ هـ .

وذكر الأزرقي أنه رفع إلى الخليفة العباسي جعفر المتوكل أن إزار الديباج الأحمر يبلى قبل حلول شهر رجب من مس الناس وتمسحهم بالكعبة، فأمر بإزارين آخرين يضافان إلى الإزار الأول ، ثم جعل في كل شهرين إزاراً ، وذلك سنة ٢٤٠ هـ لكسوة سنة ٢٤١ هـ .

وكساها الناصر لدين الله أبو العباس أحمد الخليفة العباسي ديباجاً أسود ـ وكان السواد شعار العباسيين ـ وقد بدأ حكمه سنة ٥٧٥ وتوفي سنة ٦٢٢ هـ .

وأخذت الكعبة بعد كسوة الخليفة الناصر ترتدي السواد إلى يومنا هذا، وقد استمر من جاءوا بعده من الخلفاء العباسيين على سنة الناصر حتى انقرضت دولتهم سنة ٦٥٦ هـ .

الكسوة بعد العباسيين

انتهت خلافة بني العباس سنة ٦٥٦ هـ وفي أيام المقتفي الخليفة العباسي الذي بويع بالخلافة سنة ٥٣٠ هـ إلى أن توفي سنة ٥٥٥ هـ. كانت الخلافة العباسية ضعيفة وعرضة للفتن على الدوام ، ولم تكن لديهم القدرة على الاستمرار في صنع الكسوة ، فكان يقوم به غيرهم أحياناً ، ولم يكونوا من الأمراء والحكام ، بل كان منهم من أفراد الأمة الموسرين .

وفي زمن المقتفي كسا الكعبة أحد الأثرياء ، ويدعى « راشت » وفي بعض الكتب « رامشت » وقد ذكر ابن كثير في كتابه العظيم المسمى « البداية والنهاية » طبعة السعادة والسلفية ومكتبة الخانجي سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) صفحة ٢١٢ جزء ١٢ في حوادث سنة ثنتين وثلاثين وخمسمئة ما نصه :

« وفيها كسا الكعبة رجل من التجار يقال له : راشت الفارسي بثمانية عشر ألف دينار ، وذلك لأنها لم تأتها كسوة في هذا العام لأجل اختلاف الملوك » .

وفي سنة ٦٤٣ هـ هبت ريح شديدة على مكة ومزقت كسوة الكعبة حتى عريت ، وكان حينئذ شيخ الحرم المكي منصور بن منعة البغدادي ، فاستعد الملك المنصور صاحب اليمن أن يكسوها ، فأبى ابن منعة محتجاً

له بأن الكسوة من حق الخليفة العباسي ، وهو وحده الذي يملك حق الإذن لمن يريد أن يكسو الكعبة .

واقترض ابن منعة ثلاثمئة مثقال اشترى بها ثياباً قطنية صبغها بالأسود ، وكسا بها الكعبة .

ومرت سنوات عجاف بالكسوة حتى دالت دولة بني العباس سنة ٦٥٦ هـ فبادر الملك المظفر ملك اليمن بكسو الكعبة سنة ٦٥٩ هـ وسنة ٦٦٠ هـ .

وفي سنة ٦٦١ هـ كسا الكعبة الملك ظاهر بيبرس البندقداري (٦٢٠ – أو ٦٢٥ – ٦٧٦ هـ) وهو أحد أعاظم سلاطين المماليك ، وحارب الصليبيين وهزمهم هزائم منكرة .

وأخذ ملوك اليمن وملوك مصر يتعاقبون على كسو الكعبة ، مرة أولئك ، ومرة هؤلاء ، إلا أن الملك المظفر اليمني كسا الكعبة بضع سنوات دراكاً[1] ، ثم كان التعاقب حتى تفردت مصر بالكسوة .

---

١ دراكاً : أي متتابعة .

مصر تتعهد بالكسوة

بعد أن وقف أحد سلاطين مصر – كما سيأتي – ريع قرى مصرية اشتراها للإنفاق على صناعة الكسوة كان بعض الموسرين وحكام بعض الأقطار الإسلامية يكسون الكعبة – وذلك نادر – وكان يحدث عندما لا يفي الريع بنفقات صناعتها .

أما هذا الملك المصري الذي أراد أن يجعل لصناعة الكسوة دخلاً ثابتاً فهو الملك الصالح إسماعيل رحمه الله وأثابه .

وقد جاء في كتاب « مرآة الحرمين » لرفعت باشا وفي كتب أخرى غيره مثل كتاب « النسك » لمحمد محيي الدين عبد الحميد ما نصه المنقول من كتاب « النسك »[1] :

وفي سنة ٧٥٠ من الهجرة وقف الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر ابن قلاوون ثلاث قرى من مصر على أن تصنع من ريعها كسوة الكعبة والحجرة النبوية ، ثم اشترى السلطان سليمان ابن السلطان سليم العثماني سبع قرى أخرى من قرى مصر وضمها إلى وقف الملك الصالح إسماعيل » .

---

١ طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٥١ ونشر المكتبة العلمية بمكة المشرفة لصاحبها عبد الفتاح فدا وأولاده .

والملك الصالح إسماعيل توفي سنة ٧٤٦ هـ كما ذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » ج ١٤ ص ٢١٦ .

وتحديد سنة ٧٥٠ بأنها السنة التي وقف فيها الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر ثلاث القرى لصنع الكسوة الشريفة من ريعها مخالف كل المخالفة للحقيقة والتاريخ ، فالواقف رحمه الله قد توفي قبل سنة ٧٥٠ هـ بأربع سنوات .

وفي كتاب « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » تأليف تقي الدين الفاسي المكي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ (١ / ١٢٣) الطبعة الأولى :

« وكسوتها في هذه السنة وفيما قبلها من سبعين سنة من الوقف الذي وقفه السلطان الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر أيام سلطنته على كسوة الكعبة كل سنة وعلى كسوة الحجرة النبوية والمنبر الشريف في كل خمس سنين مرة ، وهذا الوقف قرية بنواحي القاهرة في طرف القليوبية مما يلي القاهرة اشتراها الملك الصالح من بيت المال ووقفها على ما ذكر فيها ، ولم يكسها أحد من الملوك بعد ذلك إلا أخوه الملك الناصر حسن ، إلا أن كسوته لم تكن لظاهر الكعبة ، وإنما هي لباطنها وهي الكسوة التي في جوفها الآن ، وبلغني أنها كانت أطول من هذا بحيث تصل إلى الأرض ، وهي الآن ساترة لمقدار النصف الأعلى وسقفها ، وهي حرير أسود ، وفيها جامات مزركشة بالذهب ما خلا شقة من السقف بين الأسطوانتين اللتين تليان الباب فإنها كمخة حرير حمراء ، وفي وسطها جامة كبيرة مزركشة بالذهب .

« وكان إرسال السلطان حسن بهذه الكسوة في سنة إحدى وستين وسبعمائة .

« وبلغني أنه كان في جوف الكعبة قبلها كسوة للملك المظفر صاحب اليمن ، والملك المظفر أول من كسا الكعبة من الملوك بعد انقضاء دولة بني العباس من بغداد وذلك سنة تسع وخمسين وستمائة ، واستمر يكسوها

عدة سنين مع ملوك مصر . وانفرد بكسوتها في بعض السنين ، وكان المستولي لذلك غالباً .

« وأول من كساها من ملوك مصر بعد بني العباس الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي. وأول سنة كسا فيها الكعبة سنة إحدى وستين وستمائة » .

وفي كتاب « الإعلام بأعلام بيت الله الحرام » تأليف قطب الدين النهرواني المكي الحنفي الذي فرغ من تأليفه سنة ٩٨٥ هـ [1] صفحة ٢١٣ – ٢١٤ :

« ذكر شيخ الإسلام قاضي القضاة بمصر الشهاب أحمد بن حجر العسقلاني رحمه الله في كتابه « فتح الباري » أن الصالح ابن الناصر ابن قلاوون اشترى ثلثي قرية يقال لها بيسوس من وكيل بيت المال ثم وقفها في كسوة الكعبة الشريفة ، ولم تزل تكسى من ريع تلك القرية الخ » .

ويقول نقلاً عن السمهودي : « وكسوة الكعبة الشريفة وكسوة الحجرة الشريفة النبوية في هذه الأعصر من وقف قرية يقال لها : سندبيس في طرف القليوبية مما يلي القاهرة شراها السلطان الصالح إسماعيل ابن الناصر محمد بن قلاوون من وكيل بيت المال ، ووقفها لأن تكسى منها الكعبة الشريفة كل سنة ، وتكسى الحجرة الشريفة النبوية في كل خمس سنين مرة على ما قاله الزين المراغي في ذلك في عشر الستين وسبعمائة ، أقول : هذه القرية موجودة الآن بمصر ، ولكن ذكر لي من كتبة ديوان مصر الفاضل الكامل مولانا مصطفى حلبي ابن مسيح زاده لما كان مقيماً بمكة المشرفة ناظراً على الحرم الشريف المكي – ذكره الله تعالى بالصالحات والرحمة – أن هذه الأوقاف ضعفت جداً ، وقلّ محصولها ، وصارت لا تفي بكسوة الكعبة الشريفة فعرض ذلك على أبواب المرحوم السلطان

---

١ وقع كتاب قطب الدين في الجزء الثالث من سلسلة « أخبار مكة المشرفة » المطبوع في غوتنغه سنة ١٣٧٤ هـ .

سليمان خان – أسكنه الله تعالى فسيح الجنان – فأمر بإلحاق قرى أخرى اشتريت من بيت المال وأوقفها وألحقها بأوقاف كسوة الكعبة الشريفة ، وهي باقية إلى الآن ، ومنها كسوة الكعبة الشريفة في كل عام » .

فهذه المصادر لم تحدد سنة وقف الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون ، وتحديد من ذهب إلى أن الوقف كان سنة ٧٥٠ هـ ليس بصحيح ، لأن الملك الصالح تولى الملك في أول سنة ٧٤٣ هـ وتوفي سنة ٧٤٦ هـ وكانت مدة ولايته ثلاث سنوات وشهراً ونصف شهر كما ذكر الزركلي في كتابه « الاعلام » وهو الصحيح .

والوقف كان في هذه المدة التي تولى فيها ، وخلفه أخوه الملك المظفر حاجي بن محمد قلاوون وبقي في الحكم من سنة ٧٤٦ هـ إلى سنة ٧٤٨ هـ حيث قتل ، وتولى الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون وكان صغيراً ، واستمر إلى سنة ٧٥٢ هـ ثم خلع ، وولي أخ له مكانه هو الملك الصالح الثاني ، ثم أعيد الملك الناصر حسن سنة ٧٥٥ هـ إلى أن قتل سنة ٧٦٢ هـ .

وقد ثبت أن الكسوة كانت تصنع من ريع وقف الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون المتوفى سنة ٧٤٦ هـ وكسا أخوه الملك الناصر حسن الكعبة سنة ٧٦١ هـ كما مر ، ولكنها لم تكن الكسوة الظاهرة ، وإنما كانت الكسوة الداخلية المشرفة .

وكسا الكعبة السلطان برسباي الملك الأشرف سيف الدولة ، وهو أحد سلاطين مماليك مصر ، وكان من أبطال المسلمين وقادتهم ، وقد انتصر على ملك قبرص ، وبسط سيادته على سوريا والحجاز ، وتوفي سنة ٨٤٣ هـ (١٤٣٨ م) .

ويجوز ان كسوته كانت من الوقف الذي وقفه السلطان إسماعيل بن محمد بن قلاوون ، وتخصيص برسباي بالذكر يوحي بأن كسوته كانت

من ماله ، والتوفيق بين الأمرين أن ريع الوقف لم يكن كافياً لصنعها بدليل شراء السلطان سليمان سبع قرى أضافها إلى القرى الثلاث اللاتي اشتراهن السلطان إسماعيل ، فأكمل برسباي العجز من ماله .

والقرى الموقوفة من قرى مصر لكسوة الكعبة عشر ، وهي : بسوس ، وسندبيس ، وأبو الغيط ، وسلكة ، وسروبجنجه ، وقريش الحجر ، ومنايل وكوم رحان ، وبجام ، ومنية النصارى ، وبطاليا .

والقرى الثلاث الأولى اشتراها الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون إبان حكمه (٧٤٣هـ – ٧٤٦هـ) أما السبع الأخر فقد اشتراها السلطان سليمان الخليفة العثماني ابن الخليفة العثماني السلطان سليم[١]

وكانت كسوة الكعبة من مصر حتى بعد دخولها سنة ٩٢٣هـ تحت حكم العثمانيين الذين أخذوا على أنفسهم كسوة الحجرة النبوية وكسوة الكعبة من الداخل والطيب والعطور والشموع وزيت القناديل .

وبقي الأمر كذلك حتى تولى محمد علي باشا حكم مصر ، وحل الوقف الخاص بالكسوة ، وأنشأ إدارة حكومية خاصة لصنع الكسوة ، وتعهدت الحكومة المصرية بالإنفاق على صناعة الكسوة .

---

١ ولد السلطان سليمان سنة ٩٠٠هـ وجلس على كرسي السلطنة سنة ٩٢٦ وتوفي سنة ٩٧٤هـ.

الكسوة
في عهد سعود الكبير

في اليوم الرابع من شهر المحرم سنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) دخل الإمام سعود الكبير ابن الإمام عبد العزيز مكة المكرمة حرسها الله في عهد أبيه ، ولم يدرك الحج ولا حفل كسو الكعبة ، ولكنه علم ما يصحب الكسوة من بدع فأراد منع تكرارها فيما يأتي من الأعوام ، فكتب إلى السلطان سليم يطلب إليه منع قدوم المحمل المصري والمحمل الشامي مصحوبين بالطبول والزمور ، لأن ذلك من البدع التي يجب منعها .

وها هو ذا نص الكتاب :

« من سعود بن عبد العزيز السعود إلى سليم

أما بعد ، فقد دخلتُ مكة في اليوم الرابع من محرم سنة ١٢١٨ هـ وأمنت أهلها مع أرواحهم وأموالهم بعدما هدمت ما هناك من أشياء وثنية ، وألغيت الضرائب إلا ما كان منها حقاً ، وأثبتُّ القاضي الذي وليته أنت طبقاً للشرع ، فعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هذا البلد المقدس ، فإن ذلك ليس من الدين في شيء ، وعليك رحمة الله وبركاته »[1] .

---

١ صقر الجزيرة ، تأليف أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثالثة ، صفحة ١٨٤ من الجزء الأول .

ولم يلبث سعود بن عبد العزيز آل سعود بمكـــة إلا يسيراً ، وأقام عليها والياً من طرفـــه وعاد إلى نجد ، فإذا الوالي من قبل الحكومـــة العثمانية الذي كان قد هرب من مكة عند دخول سعود الكبير عاد إليها وتسلم زمام الأمر فيها ، وأخرج واليه .

ولكن سعود الكبير عاد بعد ذلك إلى الحجاز واستولى على مكـــة ، وبدخوله إليهـــا امتنع مجيء الكسوة من سنة ١٢٢١ هـ إلى سنة ١٢٢٧ هـ حيث انتهى بعدها الحكم السعودي من الحجاز ليعود إلى حكم العثمانيين .

وخلال هذه السنوات السبع التي انقطعت فيهن الكسوة من مصر كان الإمام سعود الكبير يتولى كسوة الكعبة .

كساها سنة ١٢٢١ هـ من القز الأحمر ، ثم كساها فيما تلاها من الأعوام بالديباج الأسود والقيلان الأسود ، وجعـــل إزار الكسوة وستارة باب الكعبة من الحرير الطبيعي الأحمر المطرز بالذهب والفضة .

وبعد استرداد العثمانيين حكم الحجاز سنة ١٢٢٧ هـ عادت الكسوة من مصر كما كانت ترد من قبل إلى أن ثار الملك الحسين ملك الحجاز على حكم الترك سنة ١٣٣٣ هـ فانقطعت الكسوة .

ألم نقل : إن السياسة وأهواء الحكام كانت تتحكم في الكسوة الشريفة ؟ .

الكسوة في عهد الملك حسين

تولى الشريف الحسين بن علي حكم الحجاز بأمر من السلطان عبد الحميد سنة ١٣٢٨ هـ (١٩٠٨ م) وكانت الكسوة تأتي من مصر دون انقطاع. فلما قامت الحرب العظمى الأولى بين ألمانيا وبريطانيا وحلفائها سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤ م) لم تكن تركيا قد دخلتها إلى جانب ألمانيا ، فجاءت الكسوة من مصر في موعدها .

ولما دخلت تركيا الحرب سنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٥ م) خشيت الحكومة التركية أن يحول دخولها الحرب دون أن ترسل مصر الكسوة لخضوعها لبريطانيا فصنعت في الآستانة كسوة فاخرة آية في الروعة والجمال بكل توابعها، صنعت كسوة الكعبة من الخارج وكسوتها من الداخل ، وكسوة الحجرة النبويـة الشريفة والروضة المباركة بالمدينة المنورة ، وأرسلتها براً بالسكة الحديدية إلى المدينة المنورة ، فوصلت إليها قبل الحج من سنة ١٣٣٣ هـ وحفظت بمستودع المسجد النبوي ، لأن مصر بعثت الكسوة ، إذ خاف الانجليز من منعها ، فسمحوا بها لأنها كانت من برامجها أن تتألف العالم الاسلامي وتثيره ضد تركيا .

وارتدت الكعبة الكسوة القادمة من مصر ، وبقيت الكسوة التركية محفوظة بمستودع المسجد النبوي بالمدينة المنورة .

واستمرت مصر في إرسال الكسوة في موعدها دون أن تتأثر بالحرب إلى سنة ١٣٤٠ هـ لأن الانجليز لم يتدخلوا في أمر الكسوة في الحرب ، ولا بعد الحرب ، بل تركته إلى الحكومة المصرية ، وان كانت بريطانيا قد يسرت وصول الكسوة إلى جدة في زمن الحرب من أجل التقرب إلى العالم الإسلامي وإرضاء الملك الحسين .

وفي سنة ١٣٤١ هـ وصلت الباخرة التي تحمل الكسوة إلى جدة قبيل موعد الحج ومعها بعثة الكسوة والبعثة الطبية المصرية ، وسمح الملك الحسين بنزول الكسوة وبعثتها وكل من أراد الحج من ركابها إلا البعثة الطبية منعها من النزول لأسباب سياسية ، فأبى المسئولون المصريون عن الكسوة النزول معها إلا إذا نزلت البعثة الطبية .

وتعند المصريون ، ولم يتفق الطرفان ، مع أن الملك الحسين سمح للجميع بالنزول على أن ينزل أعضاء البعثة الطبية حجاجاً لا بصفة كونهم أعضاء البعثة الطبية ، ولكن المصريين تعندوا وأعادوا الباخرة إلى السويس ، ومعهم الكسوة ، لم ينزلوها انتقاماً من الحسين .

وكانت عودة الباخرة المصرية في آخر يوم من شهر ذي القعدة سنة ١٣٤١ هـ ولم يبق لموعد الكسوة الجديدة التي سترتديها الكعبة إلا أيام معدودوات ، تسعة أيام ، لأن الكعبة سترتدي حلتها الجديدة في يوم العاشر من ذي الحجة .

وأصاب القلق والهم والحرج الملك الحسين ، وأسقط في يده ؛ فليس لديه وقت كاف لصنع كسوة جديدة بمكة المكرمة ، وهو لا يريد أن

يعمل كسوة ملفقة تسيء إلى سمعته ، وشاركه أهل مكة ما أصابه من الهم ، ولم يكن لديهم حل لهذه المشكلة .

وفي خضم هذا القلق الذي غرق فيـه الحسين تذكر الكسوة التركية المحفوظة بمستودع الحرم النبوي بالمدينة المنورة منذ وصول الكسوة إليهـا في سنة ١٣٣٣ هـ ولكن نقلهـا يستغرق عشرة أيام ومعنى هذا أن موعـد ارتداء الكعبة كسوتها سيتأخر يوماً أو يومين ، وأخيراً حـلّ الحسين المشكلة ، فأمر واليه على المدينة المنورة أن ينقل الكسوة إلى ميناء رابـغ عن طريق البر ، وأرسل سفينته المسماة « الرقمتين » إلى رابغ تنتظر الكسوة لنقلها إلى جدة ، وهيأ بجدة من ينقلونها إلى مكة المكرمة ساعة وصول الباخرة إلى جدة .

وأعد الحسين في مكة كل شيء ؛ وآل الشيبي سدنة بيت الله كانوا على أهبة الاستعداد مع الخياطين والعمال .

وانتهى كل شيء على خير مما كان الحسين يرجو ويتمنى ، فقد وصلت الكسوة التركية إلى مكة المكرمة يوم العاشر من ذي الحجة موعد كسو الكعبة ، وارتدتها على مشهد من حجاج بيت الله الحرام وفيهم كثير من حجاج مصر ، فإذا هي كسوة فاخرة آية في الروعة والجمال ، وخير في مظهرها ومخبرها من الكسوة المصرية .

ولم يكن لدى مصر علـم بهذه الكسوة التركية ، وكانت تعلم أنـه لا وجود لمصنع نسج وحياكة بالحجاز كله ، ولم يكن لدى الحسين وقت كافٍ لصنع الكسوة في أي قطر عربي أو إسلامي ، ولهذا كانت دهشة الحكومة المصرية بالغة إلى أبعـد حد ، وأخذت تسأل : كيف استطاع خصمها الحسين صنع كسوة جدّ فاخرة خلال تسعة أيام ؟ ولم تعرف الجواب ، وإن كان قد ساءها أن يستطيع الحسين صنع كسوة رائعة .

وهكذا تدخلت السياسة في الكسوة ، وخشي الحسين رحمه الله ألا ترسل مصر الكسوة سنة ١٣٤٢ هـ فعمل بالعراق كسوة حسنة ، ووصلت إلى مكة المكرمة ، وحفظت بمستودع المسجد الحرام انتظاراً لموعد الكسوة.

ولكن مصر خشيت على سمعتها لدى العالم الاسلامي فقررت إرسال الكسوة في موعدها سنة ١٣٤٢ هـ ووصلت إلى مكة والحرب قائمة بين الحسين وعبد العزيز آل سعود رحمهما الله ، وكسيت الكعبة بالكسوة المصرية .

أما الكسوة التي صنعها الحسين فقد بقيت بمستودع المسجد الحرام .

وفي سنة ١٣٤٣ هـ كان حكم الحجاز موزعاً بين عبد العزيز آل سعود والحسين ثم ابنه علي ، فقد كان الحجاز من بواديه إلى الطائف فالهدا تحت حكم السعوديين ، ومكة وجدة وغيرهما من المدن والقرى إلى شمال الحجاز بيد الهاشميين ، وعندما احتلت القوات السعودية الطائف فالهدا وانهزم علي بن الحسين في معركة الهدا في شهر صفر سنة ١٣٤٣ هـ غادر علي ورجال الحكم الهاشمي مكة إلى جدة ، وبقي الحسين بمكة حتى نزل عن الملك لابنه علي في مساء يوم ٤ ربيع الأول ١٣٤٣ وبويع الملك علي يوم ٥ ربيع الأول ١٣٤٣ وبقي الحسين بمكة إلى يوم ٩ ربيع الأول وغادرها إلى جدة ، ووصل الملك علي إلى مكة في اليوم الذي غادرها أبوه .

ودخلت القوات السعودية مكة المكرمة يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هـ (١٦ اكتوبر سنة ١٩٢٤ م) وسيطر السعوديون على كل مكة ، ومنها المسجد الحرام .

أما عبد العزيز آل سعود فقد دخل مكة محرماً ومعه جنوده ليلة الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣ هـ وصار هو المسئول عن المسجد الحرام والكعبة المعظمة والكسوة الشريفة .

ولم يفكر الملك عبد العزيز في أمر الكسوة ، وكذلك الملك علي بن الحسين ، فعبد العزيز كان خالي الذهن عن الكسوة ، لأن موعدها بعيد، وعلي بن الحسين لم يفكر فيها لأنه كان مشغولاً بالحرب التي لم يكن على ثقة بكسبها بعد الهزائم التي أصابت والده وأصابته .

وانتهى بنهايـة سنة ١٣٤٢ هـ عهد الهاشميين بالكسوة وبـدأ عهد السعوديين .

آل سعود والكسوة

إن من كانوا يهدون إلى الكعبة المشرفة الكسوة أو من وقفوا الأوقاف للإنفاق من ريعها على صنع الكسوة كانوا يريدون وجه الله سبحانه وتعالى من عملهم المبرور ، ولم يشترطوا في وقفهم منع إرسال الكسوة إلى الكعبة إذا كان حكام البلد الذي تصنع فيه على خلاف مع الحكومة التي تتولى أمر الحجاز ومكة المكرمة .

ولكن السياسة كانت تتحكم في الكسوة ، فإذا كانت الحكومة التي تتولى مصر – وهي التي تُصنَع فيها الكسوة – على خلاف مع حكومة مكة فإن حكومة مصر تمنع الكسوة انتقاماً وتشفياً وتشويهاً لسمعة من يتولى حكم مكة المكرمة .

وقد حدث ذلك غير مرة ، حدث ذلك عندما تولى أمر مكة الإمام سعود الكبير ابن الإمام عبد العزيز آل سعود سنة ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) فمنعت حكومة مصر الكسوة مدة حكم الإمام سعود الكبير من سنة ١٢٢١ هـ إلى سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) حيث عاد الحجاز والحرمان الشريفان إلى حكم العثمانيين .

وفي عهد الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق منعت مصر

إرسال الكسوة أو ردتها بعد وصولها إلى ميناء جدة لخلاف سياسي وذلك سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) .

وفي أول عهد الملك عبد العزيز آل سعود منعت مصر إرسال الكسوة سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤م) وسنة ١٣٤٥ هـ .

وكذلك منعت مصر الكسوة سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٢ م) مما حمل الحكومة السعودية أن تتولى هي نفسها صنع الكسوة وتنزيهها عن السياسة ، وإبعادها عن أهواء الحكام .

وقبل أن يكون للكسوة وقف شرعي صحيح ثابت تعرضت الكسوة لظروف كانت تحول دون وصولها أو صنعها ، فكان بعض أهل الخير يتولون كسوتها .

أما في العصر الحاضر الذي تعرضت فيه الكسوة الشريفة لأهواء الحكام وتقلبات السياسة فإن الحكومة السعودية رأت تنزيه الكسوة من الأهواء السياسة وقررت صنعها ، وصنعتها منذ سنة ١٣٨٢ هـ وما تزال تصنعها حتى اليوم صناعة آية في الإتقان والفخامة

الكسوة
في عهد الملك عبد العزيز

دخل الملك عبد العزيز مكة المكرمة ليلة الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣ هـ ولم يفكر في الكسوة الشريفة ، لأن موعدها بعيد ، وكان يظن أن مصر لن تمنع إرسالها ، لأن الكسوة حق الكعبة ، ولا يجوز لأحد أن يمنعها حقها هذا ، وليست الكسوة منحة من حكام مصر ، بل هي ثمرة وقف وقفه أهل الخير من الملوك لتصنع من ريعه الكسوة الشريفة .

وكانت جدة تحت حكم الهاشميين ، فحاصرها الملك عبد العزيز ، ولم يرد أن يدخلها عنوة وحرباً حقناً للدماء ، ولأن بها سفارات الدول ، وأزف موعد وصول الحجاج إلى بيت الله الحرام ، كما أن مسئولية تموين البلاد الحجازية التي هي تحت حكمه بالأرزاق تقع على عاتقه وحده ، ففكر في إعداد ميناء رابغ الذي احتلته قواته حتى يكون صالحاً ليستقبل بواخر الحجاج والتموين ، وليكون في وسعه استقبال الكسوة بدل مدينة جدة المحاصرة الخاضعة لنفوذ الهاشميين .

وأهلّ هلال ذي القعدة سنة ١٣٤٣ هـ وأقبل الحجاج إلى ميناء رابغ وهبطوا فيه ، وجاء موعد وصول الكسوة من مصر ، ولكن مصر

لم ترسل الكسوة ، ولم تخبر الملك عبد العزيز بامتناعهـــا عن إرسالها ، وأهل هلال ذي الحجة سنة ١٣٤٣ هـ ولم تصل الكسوة ، فوقـع الملك عبد العزيز في حيرة شديدة ، فليس لديه من الوقت مـا يكفي لصنع كسوة تليق بالكعبة خلال بضعة أيام ، وهو لا يريــد أن يبدأ حكمـه للحجاز وخدمته للبيت بتلفيق كسوة لا تليق ببيت الله ، ووقع في حيرة لم يجد منها مخرجاً .

واجتمع بآل الشيبي سدنة الكعبة المشرفة وآل نائب الحرم وكبار أهل مكـة ، وعرض عليهـم أمر الكسوة التي منعت مصر إرسالها ، وطلب إليهم الرأي ، فأخبره آل الشيبي وآل نائب الحرم أن بأحـد مستودعات المسجد الحرام كسوة كاملة سليمة صالحة كان الملك الحسين قد صنعها بالعراق سنة ١٣٤٢ هـ .

وفرح ابن سعود فرحاً عظيماً ، ونهض معهم إلى المستودع ، وأخرجوا الكسوة فإذا هي سليمة ورائعة ، وكسيت بها الكعبة في يوم العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٤٣ هـ .

وشهد حجاج بيت الله الحرام الكعبة المشرفة مكسوة كسوة فاخرة ، ودهش المصريون وحكومتهـم من قدرة ابن سعود على صنع الكسوة ولم يعلموا حقيقة الأمر .

ورأى الملك عبد العزيز رحمـه الله تحكم السياسة في الكسوة ، وكان على علم بما كان يحدث لها بسبب أهواء الحكام ، ورأى ما وقع فيه هو نفسه من الحرج والحيرة والقلق والغم عندما منعت مصر إرسال الكسوة سنة ١٣٤٣ هـ لولا أن وجد الكسوة التي صنعها الحسين رحمه الله بالعراق وكسا بها الكعبة ، ورأى أن يستعد لذلك حتى لا يتكـرر مـا حدث ، ففكر في عمل الكسوة بأحد الأقطار الإسلامية ، ولكن اهتدى أخيراً إلى

أن ينشىء مصنعاً للكسوة بمكة المكرمة ، ويستغني عن مصر وغيرها[1] .

ولكن الحرب في الحجاز لم تنته ، وهو مشغول بها ، وما زال الملك علي بجدة ، ولا بد أن ينهي الحرب ، فأعـد العدة ، وشدد الحصار على جدة ، ويئس الملك علي ، فقد خسر الحرب ، ولم يبق إلا التسليم ، فعرض الصلح على الملك عبد العزيز ، وانتهى الأمر بينهما على أن يتنزل الملك علي ويسلم الملك عبد العزيز ما تبقى لديه من البـلاد ، وتم ذلك يوم الأحـد ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٤ هـ (٢٠ ديسمبر ١٩٢٥ م) .

وبانتهاء الحرب لم يبق ما يشغل الملك عبد العزيز غير الاهتمام ببلاده وشعبه ، وفكر تفكيراً جاداً في كسوة الكعبة ، وخشي أن تستمر مصر على امتناعها فلا ترسل الكسوة في موعدها إلى مكة .

وبينا هو يعد العدة لإنشاء مصنع للكسوة بمكة المكرمـة علم في شهر شعبان سنة ١٣٤٤ هـ أن مصر سترسل الكسوة ، ومع هذا احتاط للأمر ، ووكل إلى ابنه فيصل أن يستعد لاحتمال المنع ، لأن ما وصل إليه من علم لم يكن رسمياً ، ويجب أن يحسب حساب الأهواء السياسية .

وليس مـن السهل إنشاء مصنع للكسوة خلال بضعة شهور ، ومـا يريد الملك عبد العزيز أو ابنه فيصل إنشاء مصنع تقيمه السرعة والارتجال ، بل يريدان انشاء مصنع حديث يستطيع صنع كسوة يجب ألا تقل عن صناعة مصر أو تركيا ، بل يجب أن تكون الكسوة السعودية خيراً من غيرها ، وهذا غير مضمون إلا بإعداد عدة كاملة .

---

١ أشار العلامة الشيخ محمد طاهر المكي الكردي في كتابه « التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم » جـ ٤ ص ٢٠٧ نقلا عن تاريخ الغازي أن كسوة الكعبة سنة ١٣٤٣ كانت من صنع الاحساء ، وما ذكرناه هو الحق .

وجاء موسم الحج لعام ١٣٤٤ هـ ووصل المحمل المصري يحمل الكسوة ، ولكن صحبها جنود مصريون مسلحون وضباط وقائد ، ولم يرد الملك عبد العزيز أن يحدث أزمة ، فسمح للقوة العسكرية أن تنزل ، ولكنه توجس منها الخيفة ، وقد حدث ما توقعه الملك عبد العزيز .

وقع حادث غاية في الخطر والبشاعة في منى ليلة التاسع من ذي الحجة ، ليلة الوقوف بعرفات ، والطريق من مكة إلى منى فمزدلفة فعرفات مزدحم بعشرات الآلاف من الحجاج ، وكانت القوة المصرية المسلحة تنزل بمنى ، وأخذت طبولها تقرع ، وموسيقى الجيش المصري تصدح ، وهذا منكر في هذه الليلة المباركة في تلك الأماكن المقدسة ، وقد أعلن الحجاج وفيهم حجاج مصر استنكارهم ، وطلب السعوديون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر من قائد القوة المصرية أن يأمر بإسكات الموسيقى والطبول التي ضيع صخبها وضجيجها التلبية ، فاستهان القائد بالناصحين ، وزاد الطبول الضخمة قرعاً والموسيقى صدحاً ، ووقع الاشتباك بالأيدي من قبل بعض الجنود السعوديين والحرس المصريين أدى إلى إطلاقهم المدافع تقذف بالقنابل والرصاص ، وأصيب عشرات الحجاج بل المئات ، فقتل بعضهم وجرح كثير .

وانتدب الملك عبد العزيز ابنه فيصلاً الذي كان مثل سائر الحجاج بملابس الإحرام ، فمضى فيصل ، ووفقه الله لإخماد نار الفتنة ، وسلم الله سبحانه وتعالى وفود بيته ، وحجوا آمنين مطمئنين بفضل الله .

وفي يوم العاشر من ذي الحجة كسيت الكعبة بالكسوة المصنوعة في مصر .

ولم تعتذر الحكومة المصرية عما حدث ، وظنت الحكومة السعودية

خيراً بحكومة مصر التي تظاهرت باستمرارها في إرسال الكسوة ، واطمأن الملك عبد العزيز إلى ذلك ، وفوجىء في غرة ذي الحجة سنة ١٣٤٥ هـ أن مصر منعت الكسوة ولم ترسلها ، لتحرج الملك عبد العزيز أمام العالم الإسلامي وحجاج بيت الله الحرام ، وارتبكت الحكومة السعودية ، وتولى عبد العزيز نفسه الأمـــر ومعه ابنه فيصل ووزير الماليـة الشيخ عبد الله السليمان .

واجتمع بعمال نسج وخياطين ومطرزين وصاغة ، وأخبرهـــم الملك عبد العزيز بما حدث من مصر ، وبحرج الحكومة والبلاد والأمة أمـــام حجاج بيت الله الحرام ، فوعـــدوا بأن الكسوة سيتم صنعها خلال أيام بفضل الله ثم بفضل جلالته .

وصنعـوا كسوة فاخرة من الجوخ الأسود ، وجعلـوا بطانتـــه من « القلع » المتين ، وعملوا حزامها وطرزوه بأسلاك الفضة المطلية بالذهب ، وعملوا ستارة باب الكعبة – وهي البرقع – بعد تطريزه بالحرير الطبيعي وأسلاك الفضة والذهب .

وانتهوا من صنع الكسوة خـــلال سبعة أيام بعـد أن واصلوا الليـل بالنهار وعرضوا الكسوة على الملك عبـد العزيز فسر ، وكافـأ الصانعين مكافأة جزيلة ، وما كاد يأتي اليوم العاشر من ذي الحجة إلا والكعبة المشرفة ترتدي كسوتها ، وكتب على الكسوة : صنعت بمكة المكرمة بأمر الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

ورأى بعض كبـــار حجاج مصر الكسوة التي صنعت في بضعة أيام فعجبوا من توفيق الله ، واستنكر بعضهم فعل حكومتهم ، ولم يرضهم ما فعلته ، وأسخطهم أن يخلطوا السياسة بكسوة الكعبة .

وتحدث بعض كبـار حجاج مصر إلى الملك عبد العزيز وإلى نائبـه

الأمير (الملك) فيصل وإلى وزير الماليـة الشيخ عبد الله السليمان ، وأبدوا لهم أسفهم لما حدث .

ونذكر للتاريـخ أن الشيخ محمد سرور الصبان المديـر العام لوزارة المالية بذل في صناعة الكسوة جهداً لا مزيد عليه ، وكان يقضي معظم وقته مع العاملين ، ويلبي كل ما يطلبون ، ويستحثهم حتى انتهى صنع الكسوة خلال سبعة أيام .

الملك عبد العزيز
ينشىء أول مصنع للكسوة بمكة

لم تكن الكسوة التي تصنع في مصر على حساب حكومتها ، وإنما كانت تصنع من أوقاف الكعبة نفسها من الوقف الذي وقفه الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون إبان حكمه من سنة ٧٤٣ إلى سنة ٧٤٦ التي توفي فيها رحمه الله .

واستمر صنع الكسوة من وقف الملك الصالح من ريع ثلاث القرى التي اشتراها ووقفها لله تعالى لتصنع كسوتها من ذلك الريع إلى أن اشترى السلطان سليمان ابن السلطان سليم سبع قرى مصرية أخرى تضاف إلى الثلاث الأولى ، لينفق من ريع القرى العشر على صنع الكسوة ، ثم جاء محمد علي باشا حاكم مصر وأراد ضبط أمر صناعة الكسوة فأنشأ لها داراً ومصلحة.

فالكسوة ثمرة وقف صحيح أريد منه البر والاحسان والخير ، ولكن بعض حكام مصر ممن لا فضل لهم في هذا الوقف أخضعوا العمل المبرور لأهوائهم السياسية ، فإذا رضوا سمحوا بإرسال الكسوة ، وإذا سخطوا منعوا

ففي سنة ١٢٢١ هـ منع حكام مصر الكسوة لأن الامام سعود الكبير

حكم الحجاز ، وهو من أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد الدين ومحيي السنة وقامع البدع، ونبز خصومه دعوته بالوهابية ، ونشروا عنها القالة السيئة ينفرون بها المسلمين من الدعوة الاسلامية الصحيحة ، ومنعت الكسوة فصنعها – كما مر – الامام سعود الكبير سبع سنوات متتابعة ، حتى إذا مات رحمه الله سنة ١٢٢٨ هـ وأعيد حكم الحجاز إلى الخلافة العثمانية على يد جيش محمد علي باشا حاكم مصر ، عادت الكسوة إلى مصر.

ولم تترك السياسة الكسوة ، بل كانت تتحكم فيها تبعاً لأهواء الحكام في مصر ، فإذا غضب أحدهم من والي الحجاز ومكة منع الكسوة ، كأنه هو المتبرع بها ، مع أنه لا يد له فيها ، إذ الكسوة من الأوقاف المحبوسة على الكعبة ، ولم يشترط واقفوها ما أباحه أولئك لأنفسهم من التحكم في الكسوة ومنعها متى شاءوا .

وقد مر بالقارىء إعادة الكسوة سنة ١٣٤١ في عهد الملك الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز ، وكان السبب السياسة .

وفي عهد الملك عبد العزيز تدخلت السياسة في الكسوة فمنعتها مصر في عهد الملك فؤاد لخلاف سياسي اختلقته حكومة مصر ، ولم يكن للملك عبد العزيز يدٌ فيه ، فهو قد فتح الحجاز ، ووكل أمر حكمه إلى أهله، وهذا هو الحق والفضل،وبايع الحجازيون الملك عبد العزيز مبايعة أغضبت الملك فؤاداً ملك مصر ، لأنه كان يتطلع إلى الخلافة التي تقتضيه أن يحكم الحرمين الشريفين ، فلما بايع أهل الحجاز وبخاصة أهل الحرمين الملك عبد العزيز غضب الملك فؤاد ، ومنع الكسوة .

وصمم الملك عبد العزيز على إنشاء مصنع للكسوة ، وأصدر أمره في أوائل المحرم سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) إلى الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية ، وأمر ابنه فيصلاً أن يشرف هو نفسه مع وزير المالية على

إنشاء المصنع في أسرع ما يمكن من الوقت ، وأمرهما بأن يصنع في هذا المصنع كسوة الكعبة لسنة ١٣٤٦ هـ .

واهتم فيصل وابن سليمان بأمر المصنع فاختارا مكاناً له يقع أمام مبنى وزارة المالية بحي جياد في ذلك التاريخ ، ومساحته حوالى ١٥٠٠ متر ، وشيدا المصنع ، وانتهى بناؤه في شهر رجب ١٣٤٦ هـ .

وبينا كان البناء يجري بسرعة كان فيصل وابن سليمان قد أرسلا إلى الهند لشراء الحرير وغيره مما يتطلبه صنع الكسوة وإحضار عمال فنيين مهرة للنسج والحياكة والصبغ والتطريز واسلاك الذهب والفضة ، وكانا قد أعدا من السعوديين من يحسنون هذه الصناعة ، وما كاد يهل هلال رجب حتى كان العمال الهنديون قد وصلوا إلى مكة ومعهم « المكنات » والمناسج والأنوال والحرير وغيره .

واختار فيصل وابن سليمان الشيخ عبد الرحمن مظهر رئيس مطوفي حجاج الهند مديراً لمصنع الكسوة الذي حوى ستين عاملاً هندياً ، يضاف إليهم بضعة عشر من العمال السعوديين .

وأنتج المصنع أول كسوة سعودية انتُهي من صنعها في أواخر شهر ذي القعدة سنة ١٣٤٦ هـ وعرض على الملك قطعة من الكسوة والحزام فسر وابتهج ، وكافأ العمال مكافأة سخية فوق أجورهم .

وكانت الكسوة السعودية بفضل الله ثم بفضل نية الملك عبد العزيز أفخر من الكسوة المصرية وأدق نسجاً ، وأحسن صنعاً ، وما كادت الكعبة ترتدي حلتها القشيبة الرائعة حتى بهرت الناس .

وكان ثوب الكعبة من الحرير الطبيعي الأصيل ، وصبغ باللون الأسود ، وكتب على الثوب كله كلمة « لا إلـه إلا الله ، محمد رسول الله » بخط الثلث الجميل بقلم الخطاط السعودي البارع محمد أديب ، وليس معنى

كتابة الشهادتين على الثوب كله أن كتابتهما ملأته كـلـه ، بل كتبتا في وسط مربع في تركيب فني جميل ، وكتب على ضلعيه الأيمن والأيسر كلمة « جل جلاله » تنزل فيهما بجانبي لفظ الجلالـــة « الله » حيث جاءت في تجويفة كلمة « يا الله » .

وكانت الكتابة قد حيكت مع خيوط الثوب نفسه بحيث لا تخطىء العين قراءتها ، لأنها كانت من الوضوح بحيث تراها العين بسهولة .

أما حزام الكعبة فكانت الكتابة فيه منسوجة بأسلاك الفضة النقية المطلية بماء الذهب ، وعلى أطراف الحزام نقوش وزخارف دقيقة منسوجة بتلك الأسلاك ، وكتب على الحزام في الجهة التي بها باب الكعبة :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركـع السجود * وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربَّنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربَّنا واجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم ﴾ .

وكتب على الحزام في الجهة التي تبدأ من الحجر الأسود إلى الركن اليماني هذه الآيات من سورة آل عمران :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان مـن المشركين * إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حـج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين * قل يا أهـــل الكتاب لمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ .

وكتب على الحزام من الجهة الغربية هذه الآيات البينات من سورة الحج :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .

وأما الجانب الرابع من الحزام فقد كتبت فيه هذه الجملة :

« هذه الكسوة صنعت في مكة المباركة المعظمة بأمر خادم الحرمين الشريفين جلالة الملك الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل السعود ملك المملكة العربية السعودية أيده الله تعالى بنصره سنة ١٣٤٦ هـ على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم » .

وكانت الكتابة على أربعة جوانب الحزام بخط الثلث ، وكانت الكتابة بارزة منسوجة بالحرير الأبيض ، ثم نسجت بالقصب .

أما ستارة باب الكعبة وكسوتها الداخلية فكانتا آية في الروعة والجمال ، وكتبت عليها آيات قرآنية وضعت في أشكال بيضية أو كمثرية تبهر الناظرين.

والحق أن كسوة الكعبة التي صنعت في مكة المكرمة كانت أروع كسوة ارتدتها الكعبة المشرفة منذ عرفت الكسوة ، ولم يسبق لها قط أن ارتدت أجمل من كسوة الملك عبد العزيز ولا أفخم منها ولا أروع ، حتى أن لونها لم يتحول ، فلما نزعت سنة ١٣٤٧ هـ لترتدي الكسوة الجديدة نزعت وكأنها الجديدة ، وكانت أول كسوة تصنعها مكة .

وبلغ من سرور الملك عبد العزيز بأول كسوة صنعت بمكة أنه كافأ كل العمال والموظفين وعلى رأسهم مدير دار الكسوة الشيخ عبد الرحمن مظهر ، فقد منحه الملك جائزة سنية مع إجازة تشهد بكفايته وما بذل من جهد مثمر واجتهاد بارك الله له فيه .

وبعد أن قام الشيخ عبد الرحمن مظهر بإدارة المصنع وضبط كل أمورها استقال سنة ١٣٤٧ هـ فأسندت الإدارة إلى الحاج محمد خان من تلك السنة إلى سنة ١٣٥٢ هـ .

وتعلم أبناء مكة من السعوديين حتى أتقنوا صناعة الكسوة نسجاً وحياكة وخياطة وتطريزاً وزخرفة وصباغة وغير ذلك ، وغادر العمال الهنديون ، وتولى السعوديون كل أمور الكسوة ، وأسندت إدارة مصنعها إلى الشيخ أحمد سالم الجوهري سنة ١٣٥٢ هـ .

وارتدت الكعبة المشرفة سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٢ م) أول كسوة صنعت بأيد سعودية خالصة ، وكانت آية في الجمال والروعة والتمام .

وعندما ارتدت الكعبة سنة ١٣٤٦ هـ أول كسوة صنعت بمكة المكرمة كان قد اشترك في صنعها سعوديون مع اخوانهم الذين قدموا من الهند .

ولما صارت الكسوة سعودية في كل شيء كان الشيخ عبد الرحيم بخاري - وهو سعودي - هو الذي يكتب خط الكسوة بعد وفاة خطاطها السابق الأستاذ محمد أديب ، وصار الشيخ عبد الرحيم هذا هو الذي يتولى مع الخط الزخرفة والفنون الأخرى .

وبرع السعوديون في صناعة الكسوة حتى ارتقوا فيها إلى مرتبة لم يصل إليها غيرهم ، وبذوا من سبقوهم ، واستمروا في صناعتها إلى سنة ١٣٥٨هـ (١٩٣٨ م) .

وكانت مصر خلال تلك المدة التي كست فيها الحكومة السعودية الكعبة

قد شعرت بفقدان سمعتها لدى المسلمين في جميع أقطار الأرض ولدى المصريين أنفسهم ، لأنها منعت الكسوة ، وأغلق مصنعها إلى أجل غير مسمى ، وما كانت مصر تظن أن الحكومة السعودية تستطيع صنعها ، فلما صنعتها كانت تظن أن موارد المملكة السعودية القليلة لن تسمح لها بالاستمرار في صنعها ، ولكنها صنعتها خيراً مما صنعت مصر ، واستمرت بفضل الله سبحانه وتعالى حتى بلغت في صناعتها حداً لم تبلغه مصر ولا غيرها.

وصناعة الكسوة مفخرة للبلد الذي يصنعها ، وينظر إليه المسلمون نظرة احترام ، فلما منعت مصر الكسوة ووقفت صنعها ، وأغلقت مصنعها إلى أجل غير مسمى ، وسرحت العمال فقدت السمعة الطيبة التي كانت لها في العالم الإسلامي كله ، وأدركت خطأها ، فأرادت أن تصححه ، وبذلت مساعي كثيرة فلم توافق الحكومة السعودية على أن تتنزل لمصر عن عمل مبرور بعد أن أكرمها الله به .

وكلنا يعرف أن الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ كان إنساناً ذا نخوة ومروءة ، وكان لا يخيب قاصديه ، فلما رجته مصر أن يسمح لها بصنع الكسوة ، وكررت الرجاء وألحت فيه رضي ، وأغلق المصنع السعودي ، وذهب عمال الكسوة كل إلى عمله السابق ، وعادت مصر إلى إعادة فتح أبواب مصنع الكسوة بالقاهرة سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٣٨ م) وأخذت ترسل الكسوة إلى مكة إلى سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م) ثم وقفت ارسالها .

الكسوة

في عهد الملك سعود

لم تسلم كسوة الكعبة المشرفة من السياسة تتحكم فيها – كما قلنا – فقد مر بالقارىء سيطرة السياسة وأهواء الحكام على الكسوة ، فلما تعهدت مصر بإبعاد الكسوة عن السياسة سمحت لها المملكة العربية السعودية بأن تعود إلى صناعة الكسوة .

ومعروف أن الكسوة ليست هبة ، وإنما هي حق الكعبة المشرفة ، فقد وقف الملك الناصر الذي حكم مصر من سنة ٧٤٣ هـ إلى سنة ٧٤٦ هـ ثلاث قرى مصرية أضاف إليها السلطان سليمان ابن السلطان سليم سبع قرى بمصر ينفق من ريع القرى العشر على صنع الكسوة .

وكانت تتعرض للسياسة الهوجاء الخرقاء ، وتحرم الكعبة حقها ، وكانت حكومة مكة المكرمة حرسها الله تقع في حرج شديد عندما تُمْنَع الكعبة كسوتها ، وما كان شرط الواقف ينفذ دائماً ، وما كانت العهود توفى ، فكانت حكومة مكة تخرج ، ولكن الله كان يوفقها فتكسو الكعبة كلما امتنعت مصر .

وفي سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) كانت حكومة مصر تتجنى على الحكومة

السعودية التي لم تدخر وسعاً في تأييد مصر وتقديم العون لها ، ففي موسم حج سنة ١٣٨٢ هـ افتعل حاكم مصر جمال عبد الناصر حادثاً لمنع الكسوة فمنعها ، والسبب خصومة عبد الناصر للملك سعود ومملكته وشعبه بسبب الخلاف بينهما واختلاف كل منهما عن الآخر في العقائد والمبادىء والغايات والسلوك .

ولم يصدر من الملك سعود ولا من أحد من آل سعود في حق أحد من الحكام وبخاصة في حق حاكم مصر كلمة نابية بَلْهَ الفعل غير الحسن، بل كانت سياسة المملكة تأييد مصر ومساعدتها والوقوف معها في قضاياها .

وقف الملك عبد العزيز مع مصر في الحرب العظمى الثانية عندما هاجمت الدبابات قصر ملك مصر .

وأيدت الحكومة السعودية شعب مصر وحكومتها في جميع قضاياها ضد الاستعمار البريطاني .

ووقف الملك سعود وفيصل مع مصر في حرب ١٩٥٦م وأعاناها بالمال والبترول ، وكذلك في جميع العهود .

وكان الملك فيصل قد أعلن دعوته إلى التضامن الإسلامي الذي حاربه عبد الناصر الذي أعلن على بلادنا حرب الدعايات والأكاذيب ، وأصحبها بضرب بعض المدن السعودية كجيزان بالقنابل ، وتطاول علينا بالسباب والشتائم ، وزاد ثقل الملك فيصل في الميزان الدولي والعربي والإسلامي ، وخف ميزان عبد الناصر الذي دبر مؤامرة أراد منها أن يتخذ الكسوة الشريفة سلاحاً ضد المملكة السعودية ، فجاءت الباخرة المصرية تحمل الكسوة وأكثر من ألف حاج مع آخرين يصحبون الكسوة ، وعندما رست الباخرة بميناء جدة أخذ قائدها ينفذ أوامر عبد الناصر له في تنفيذ الخطة التي رسمها ، ومنع قائد السفينة المصرية السلطة السعودية من صعود

مندوبها إلى الباخرة كما هو متبع في كل باخرة ترسو على ميناء جدة ، ثم افتعل القائد موقفاً عدائياً ، وأفهم الحجاج المصريين الذين هم بالباخرة أن السلطات السعودية منعت الكسوة ونزول الحجاج .

وأخذ رجال السلطة السعودية يذيعون بمكبرات الصوت لحجاج السفينة ، ويرحبون بمقدمهم ، ويبلغونهم تحيات الملك والمسئولين والشعب ، ويرددون عبارات التحية والترحيب والضيافة ، وكانت الباخرة على صلة باللاسلكي بمصر ، وتلقت أمراً بالعودة إلى السويس . وأصابت محاطّ اذاعة الحكومة المصرية حمى التشهير والأكاذيب ، وذكرت أن الحكومة السعودية صدت عن البيت الحرام حجاجه ، وأخذت تردد التجني والأباطيل .

وكنت واقفاً على كل ما جرى ، ورددت على إذاعات مصر وصحفها مع غيري ، وفندنا أباطيلها ، وكان آلاف الحجاج المصريين أنفسهم وغيرهم يشهدون بأن الباطل حدث من حكومة عبد الناصر ؛ والحق والخير والفضل من الحكومة السعودية .

ووقعت الحكومة السعودية في حرج لا مزيد عليه ، فقد ظن عبد الناصر أن عدم ارتداء الكعبة الشريفة كسوتها الجديدة سيشوه سمعة الحكومة السعودية في العالم الإسلامي كله وفيه العالم العربي ، وسيحرج الحكومة السعودية إحراجاً لا مفر منه .

وعلم مئات الألوف من الحجاج بمكة والمسلمون جميعاً أن الكعبة لن تكسى هذا العام ، وأسقط في يد وزارة الحج والأوقاف التي أنشئت حديثاً ، منذ شهرين ، إذ لم يكن للحج غير إدارة ، وللأوقاف مديرية ، وانتدبت وزارة الحج والأوقاف أناساً سافروا إلى الهند وباكستان واليابان والشام ، رجاء أن يعملوا الكسوة خلال أيام .

وفي الوقت الذي سافر المندوبون كان الشيخ حسين عرب وزير الحج

والأوقاف مشغولاً بتهيئة كسوة يجب أن ترتديها الكعبة في الموعد المحدد ، فبحث في مستودع الحرم فوجد بضع كسى قديمة مما تم صنعه بمكة المكرمة في مصنع الكسوة الذي أنشأه الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) وأخرج تلك الكسى وفحصوها ، واختاروا منها قطعاً كونوا منها كسوة كاملة ، وأعادوا صبغها ، كما أعادوا طلاء الحزام بماء الذهب .

وما كاد يأتي يوم العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨٢ هـ إلا والكسوة مهيأة ، وألبسوها الكعبة المشرفة فبدت في حلة قشيبة جميلة ، وأذاعت الإذاعة السعودية وغيرها من محاط الإذاعة عن حفلة ارتداء الكعبة الكسوة ، وحضره آلاف الحجاج ورؤساء البعثات الإسلامية وأعضاء السلك السياسي فدهشوا .

وانتهى الأمر بسلام ، إلا أن الكسوة بدأ لونها يتغير ، فاضطرت وزارة الحج والأوقاف إلى تغييرها ، وألبست الكعبة كسوة أخرى في شهر ربيع الأول سنة ١٣٨٣ هـ .

وفي خلال عام واحد بدأ من عاشر ذي الحجة ١٣٨٢ هـ إلى ربيع الأول ١٣٨٣ هـ كسيت مرتين ، وفي العاشر من ذي الحجة ١٣٨٣ هـ كسيت كسوتها المعتادة الجديدة التي صنعت بمكة المكرمة على أيدي أبنائها .

وعزمت وزارة الحج والأوقاف بتوجيه الملك سعود أن تقوم مكة المكرمة بصناعة الكسوة من جديد ، لئلا تكون تحت حكم السياسة والأهواء ، فأعيد إنشاء مصنع الكسوة القديم الذي أسسه الملك عبد العزيز على أساس حديث ، تخلصاً من الأهواء السياسية ، وتنزيهاً للكسوة من تحكم السياسة التي لا ضمير لها .

وصنعت الكسوة بمكة سنة ١٣٨٣ هـ وارتدتها الكعبة ، ونزل الملك سعود عن الملك لأخيه الملك فيصل في غرة رمضان سنة ١٣٨٤ هـ بعد

أن بايعه الشعب في أواخر شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤ هـ .

ومنـذ أواخر سنة ١٣٨١ هـ كان الملك سعود قد نزل عن جميع سلطاته لأخيه الملك فيصل ، فكان مسئولاً عن الحكم كله ، وليس للملك سعود غير الاسم والمظهر ، فوقعت في أواخر شهر ذي القعدة سنة ١٣٨٢ هـ حادثة عودة الكسوة المصرية كما مر ذكرها .

ولما كان العهد عهد الملك سعود فقد ذكرنا الكسوة فيه ، مع أن الحكم كله كان بيد الملك فيصل ، رحمهما الله .

الملك فيصل والكسوة

لا شك أن إنشاء مصنع الكسوة بمكة المكرمة كان بأمر مؤسس هذه الدولة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، وكان ذلك سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) .

وكان الملك فيصل نائباً عن والده في حكم الحجاز ، فكان هو الذي تلقى الأمر من والده بإنشاء مصنع الكسوة ، ووكل إلى الشيخ عبد الله السليمان الحمدان وزير المالية حينئذ تنفيذ أمر الملك عبد العزيز تحت إشراف الملك فيصل الذي يعد في الحقيقة المتولي على مصنع الكسوة عندما كان فكرة .

ومنذ سنة ١٣٤٦ هـ والملك فيصل هو الراعي المباشر للمصنع ، فلما عادت مصر إلى الحق وأعادت إرسال الكسوة من سنة ١٣٥٨ هـ أغلق المصنع أبوابه .

فلما عادت مصر إلى منع الكسوة سنة ١٣٨٢ هـ أعاد الملك فيصل في عهد الملك سعود فتح مصنع الكسوة القديم الذي أنشأه الملك عبد العزيز بعد تجديده بالآلات الحديثة ، فتم إنشاؤه من جديد في غير مكانه السابق .

ونذكر للتاريخ أن وزير الحج والأوقاف الأستاذ حسين عرب قد بذل

أعظم جهوده في إنشاء مصنع الكسوة الذي يعد تجديداً للمصنع القديم الذي أنشىء في عهد الملك عبد العزيز .

ولما لم يكن لدى حسين عرب الوزير الجديد – وأول وزير للحج والأوقاف في المملكة – وقت لبناء مصنع حديث فقد شغل مبنى تابعاً لوزارة المالية يقع أمام وزارة الحج والأوقاف بجرول ليبدأ فيه العمل ، وكان في برنامجه إنشاء مصنع حديث ، إلا أنه استقال من الوزارة سنة ١٣٨٣ هـ وبقي مصنع الكسوة في موضعه الذي اختاره ينتج الكسوة على أيدي سعوديين مهرة ارتقوا في فن صناعة الكسوة إلى أرقى ما وصلت إليه .

وتسلم وزارة الحج والأوقاف بالنيابة الأديب الكبير الأستاذ محمد عمر توفيق وزير المواصلات – حينئذ – وأولى الكسوة ومصنعها اهتمامه كسلفه .

وكل هذا كان في أواخر عهد الملك سعود حتى انتهى الأمر بتولي الملك فيصل الملك في يوم الاثنين ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤ هـ .

وفي عهد الملك سعود كان أمر الكسوة إلى الملك فيصل ، ولكن ليس معنى هذا أن الملك سعود تخلى عن الاهتمام بالكسوة ، بل كان شديد الاهتمام بها ، إلا أن مرضه وكثرة رحلاته من أجل العلاج وبعده عن البلاد وانتقال كل سلطاته من سنة ١٣٨١ هـ إلى أخيه الملك فيصل جعلته هو المسؤول الأول عن الكسوة منذ أخذت مكة المكرمة على نفسها صناعتها .

وللحق والتاريخ نذكر أن صناعة الكسوة منذ نشأتها الأولى بمكة المكرمة حتى الآن تدين للملك فيصل رحمه الله .

ووزارة الحج والأوقاف هي المسؤولة عن الكسوة ، فلما أنشئت سنة ١٣٨١ هـ تولاها الأستاذ حسين عرب – وهو أول وزير للحج والأوقاف

في المملكة ــ فأنشأ المصنع الحديث الذي يعد تجديداً للمصنع الذي أسسه الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٦ هـ .

ولما استقال الأستاذ حسين عرب سنة ١٣٨٣ وخلفه الأستاذ محمد عمر توفيق كان المصنع ينتج الكسوة الفاخرة .

وفي سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) أمر الملك فيصل بإسناد وزارة الحج والأوقاف إلى الأستاذ السيد حسن محمد كتبي الذي واتته الفرصة لبناء مصنع للكسوة تنفيذاً لفكرة سلفه الأسبق الأستاذ حسين عرب ، واختير له مدخل مكة المكرمة ، ووضع الأمير فهد بن عبد العزيز الذي كان في ذلك الوقت النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية حجر الأساس في المصنع الحديث .

وبقي مصنع الكسوة في مكانه الذي اختاره الأستاذ حسين عرب ينتج كسوة الكعبة انتظار الانتقال إلى المصنع الحديث الذي بدىء بناؤه .

وأخذ هذا المصنع ينتج الكسوة من سنة ١٣٨٣ هـ إلى سنة ١٣٩٤ هـ حتى انتقل عماله إلى المصنع الحديث قبل إنجاز كل مبانيه .

الكسوة في عهد الملك خالد وافتتاح أعظم مصنع للكسوة بمكة

تولى الملك خالد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية يوم استشهاد الملك فيصل – طيب الله ثراه – وهو يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الأول [١] سنة ١٣٩٥ هـ (٢٥ مارس ١٩٧٥ م) واستهل عهده المبارك بأعمال جليلة ومشروعات ضخمة .

وبقي الوزراء السابقون في مناصبهم يؤدون أعمالهم حتى أمر جلالته في شوال سنة ١٣٩٥ هـ بتغيير الوزارة ، وإنشاء وزارة جديدة ، وقبيل التفكير في تغيير الوزارة ، استقال السيد حسن محمد كتبي من وزارة الحج والأوقاف ، فأسندت في الوزارة الجديدة وزارة الحج والأوقاف إلى الشيخ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع الذي كان في الوزارة السابقة رئيس هيئة الرقابة والتحقيق .

والشيخ عبد الوهاب من أنشط الموظفين ، ويشهد له الأمير العظيم فهد بن عبد العزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء بأنه موظف

---

١ كنت يوم استشهاد الملك فيصل رحمه الله بمصر ، وكان يوم استشهاده يوافق يوم ١٢ ربيع الاول ١٣٩٥ حسب التقويم المصري والتقاويم العربية الأخرى ، وأما حسب التقويم السعودي المشهور – تقويم أم القرى – فكان يوم ١٣ ربيع الأول ١٣٩٥ واخترنا تقويم مصر .

قدير ، فقد عمل معه عندمـــا كان سموه وزيراً للمعارف ، حتى صار وكيلاً لها ، وهو أحد بناة التعليم الجامعي ، وممن عمموا التعليم في المملكة .

فإذا تسلم وزارة الحج والأوقاف أو اختير لها فإنمـــا اختير لكفايته وقدرته ، ومن حسن حظـــه وتوفيق الله له أن كل البذور السابقة التي زرعها الوزراء تفتحت في عهده الزاهر ، فتعهدها بالمزيـد من الرعاية والعناية حتى أصبحت خـــلال عهده القصير أشجاراً باسقة تظلل مئات الألوف من حجاج بيت الله الحرام كل سنة ، وتيسر لهم أداء مناسكهم على خير وجه ، وتحقق أماني مئات الملايين من المسلمين .

ومن أعظم الأعمال المجيدة للملك خالد بن عبد العزيز اهتمامه العظيم بمصنع الكسوة مثـــل سلفه الصالح ، وأصدر توجيهاته إلى وزير الحج والأوقاف الجديد الذي اختاره لها ، فكان هذا التقدم الطافر خلال أقل من سنتين .

وأعد الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع برامج عمل ونفـــذ مشروعات ضخمة ، ومنهـــا : مصنع الكسوة ، وكل ذلك بتوجيه الملك الصالح خالد مد الله في عمره .

ونذكر للتاريخ أن أساس مصنع الكسوة الحديث قـــد وضعه الوزير السابق السيد حسن كتبي ، ولكنَّ صنع الكسوة في عهـــد الملك فيصل يعود إلى أول وزير للحج والأوقاف الشيخ حسين عرب الذي كانت له فتوح في ميادين وزارته ، ومن بين برامجه ومخططاته إنشاء أحدث مصنع للكسوة الشريفة بمكة المكرمة .

ولا شك أن لواضعي الأسس مكانة لا تنسى ، وذكراً غير ممنون ، ولكن الشيخ عبد الوهاب وزير الحج والأوقاف ـ الآن ـ قد تسلم كثيراً من المشروعات في بداياتها ، ومنها مشروع مصنع الكسوة الذي بدأ العمل

فيه في عهد سلفه ، ورأى أن المشروع في حاجة إلى مزيد من التوسعة والحداثة ، وصمم أن يحقق رغبة الملك خالد في جعْل مصنع الكسوة أحدث مصنع على الإطلاق ، ولا يقتصر عمله على كسوة الكعبة المشرفة وحدها ، بل يجب أن يكسو كل المساجد في المملكة بالبسط .

وتم بناء المصنع كما أراد الشيخ عبد الوهاب ، فإذا هو مصنع آية في الحداثة والتمام ، وزوده بكل ما يحتاج إليه مصنع في مستواه الرفيع ، وحشد فيه من العمال والموظفين ما يقارب المئتين ، وجعله تحت إشرافه المباشر .

وصنع هذا المصنع في عهد الملك خالد كسوتين : كسوة لسنة ١٣٩٥ هـ وكسوة لسنة ١٣٩٦ هـ فإذا هما خير ما كسيت به الكعبة من الخارج ومن الداخل ، وارتقى فن صناعة كسوة الكعبة إلى أرقى الذرى ، وها هو ذا يعد الكسوة لهذا العام .

والآن ، وقد استوفى المصنع كل ما هو بحاجة إليه ، فقد رأى الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع وزير الحج والأوقاف أن يفتحه رسمياً تدويناً لهذه المفخرة الإسلامية الكبرى من مفاخر الملك خالد .

وفي يوم السبت السابع من ربيع الآخر سنة ١٣٩٧ هـ (٢٦ مارس ١٩٧٧ م) افتتح مصنع الكسوة بمكة المكرمة تحت رعاية حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز ولي العهد ونائب جلالة الملك ، وقد ناب عنه في حفل الافتتاح حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فواز ابن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة ورئيس لجنة الحج العليا .

وإذا كان حفل الافتتاح إعلاناً وتخليداً لمفخرة الملك خالد فإن هذا الافتتاح شهادة صادقة للشيخ عبد الوهاب عبد الواسع وزير الحج والأوقاف على إخلاصه وجهوده التي أثمرت أعظم مصنع وأحدثه لكسوة الكعبة المشرفة .

والشيخ عبد الوهاب صاحب «أوائل» كثيرة في هذه الوزارة الفريدة التي ليس في الأرض وزارة حج سواها، ولا يتسع لذكر هذه الأوائل في هذا البحث الذي خصصناه لتاريخ الكسوة منذ كانت الكعبة حتى اليوم.

ومن حق المملكة أن تفخر بالكسوة التي صنعتها للكعبة المشرفة، ففاقت بصناعتها كل من سبقوا إليها في الفن والإبداع.

ومن دواعي الفخر أن الفكر الذي يشرف ويخطط، واليد التي تعمل، والمال الذي ينفق في صناعة الكسوة إنما كل ذلك سعودي خالص.

وما أسعد مكة تصنع كسوة كعبتها الغراء بأيدي أبنائها الألى صنعوا ويصنعون أفخر كسوة عرفها تاريخ كسى الكعبة زادها الله تشريفاً وتكريماً وتعظيماً ومهابة، وزاد كل من كرّمها وشرّفها تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً.

تخصيص الكعبة
بكسوة واحدة في السنة

كانت كسى الكعبة بعضهـا فوق بعض ، كلما بليت كسوة إستبدل بها غيرها ، ولكن الكسى كانت تتراكم على الكعبة ، فإذا رأوا كثرتها خففوا منها ، أو نزعوا ما بلي ، ولكن لم تتفرد بكسوة واحدة إلا سنة ١٦٠ هـ عندما حج المهدي العباسي ، فشكا السدنة وكبار المكيين إليه تراكم الكسى على الكعبة مما يخشى على بنائها أن يتصدع .

فرأى الاكتفاء بكسوة واحدة ، ونزع كل ما على الكعبة من كسى ، وألبست كسوة واحـدة ، فإذا جاء موعـد الكسو نزعوا القديمـة وألبسوها الجديدة .

ولم يكن مقرراً كسو الكعبة بكسوة واحدة لكل سنة ، فقـد كان الخليفـة العباسي المأمون بن الرشيد (١٩٨ هـ – ٢١٨ هـ) يعد للكعبة ثلاث كسى :

الأولى – من الديباج الأحمر ترتديها يوم التروية ، وهو يوم الثامن من ذي الحجة .

الثانية – من القباطي ذات اللون الأبيض ، وترتديها الكعبة المشرفة في غرة رجب .

الثالثة – من الديباج الأبيض ، وتكسى بها في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك .

ولعل كسو الكعبة بثلاث كسى في السنة بحيث تكون لكل بضعة شهور كسوة الرغبة في المحافظة على لونها الذي يتغير من حرارة شمس مكة حرسها الله ، وعلى الكسوة التي تبلى قبل موعد التغيير ، ولهذا أمر المأمون بأن تكسى ثلاث كسى ثلاث مرات في السنة .

ولما تقدمت صناعة الكسوة ونسجها وحياكتها بحيث صارت قوية ومتينة وثابتة اللون فقد اكتفى ولاة الأمر بواحدة تتغير كل عام .

وبلغت صناعة الكسوة أرقى ذروتها في الصناعة والاتقان عندما تولت المملكة العربية السعودية صناعتها للكسوة بمكة المكرمة ، فهي تنزع منها لترتدي الأخرى الجديدة وكأن السابقة لها جديدة لم يمسسها تغير في اللون ولا النسج .

لون الكسوة ونوعها

لم يكن لون الكسوة واحداً منذ عرفت الكعبة الكسوة ، بل كانت الألوان متعددة ومختلفة كما تعددت أنواع الكسوة نفسها .

وقد مر فيما سبق من فصول هذا الكتاب أن الكسوة كانت من البرود اليمنية والقباطي المصرية والديباج الخراساني .

وأول من كساها تبع أسعد أبو كرب ملك حمير ، كساها العُصُب والأنطاع والمسوح والخصف والملاء والبرود والمعافر .

وذكرت أم سيدنا زيد بن ثابت الأنصاري أنها رأت على الكعبة مطارف خز خضر وصفر ، وكراراً ، وأكسية من أكسية الأعراب ، وسقاف شعر .

وذكر عمر بن الحكم السلمي أنه رأى مما رأى الوصايل والنمارق العراقية .

وكساها عِدْل قريش أبو ربيعة المخزومي الحبرات اليمانية .

وكساها النبي ﷺ ثياباً يمانية ، وكساها أبو بكر وعمر وعثمان قباطي مصرية وبروداً يمانية .

وكساها خالد بن جعفر بن كلاب بن مرة الديباج ، وكذلك كساها

الديباج الخراساني ابن الزبير وغيره وكان الديباج ذا ألوان ، منها الأخضر والأحمر والأبيض والأصفر .

وكساها حسين الأفطس العلوي كسوتين مـن قز رقيق ، إحداهما صفراء ، والثانية بيضاء .

وكساهـا سعود الكبير ابن عبد العزيز آل سعود سنة ١٢٢١ هـ من القز والقيلان .

وها نحن أولاء نشرح أسماء تلك الكسى .

البرود اليمانية : البُرْد (على وزن قفل) : كساء مخطط ، وجمعه أبراد وأبْرُد وبُرُود .

القباطي : ج قُبْطية ، بضم القاف ، وهو ثوب من ثياب مصر ، منسوب إلى القبط ، والضم فيها مـن تعبير النسب ، وهذا في الثياب ، وأما في الناس فقبطي بكسر القاف[1] .

الخَصَف والخِصاف : الأولى بالتحريك وهـو فتح الأول والثاني ، والثاني بكسر الخاء جمع خَصَفَة ، وهي الثوب الغليظ .

المـلاء : جمع مُلاءة بضم الميم في المفرد والجمع ، وهي ثوب لين رقيق نسج واحد وقطعة واحدة .

المعافر : في الأصل اسم بلد باليمن ، سميت به الثياب المعافرية التي تصنع فيه .

الوصايل : جمع وصيلة ، وهي ثوب أحمر مخطط يماني .

العَصْب : برود يمانية يعصب غزلهـا ، أي يجمع ويشد ثم يصبغ بعضه وينسج مع غير المصبوغ فيأتي موشى ، ويقال له بُرْدٌ عَصْبٌ بالوصف ، وبُرْدُ عَصْبٍ بالإضافة .

---

١ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، لتقي الدين الفاسي ، طبع مصر سنة ١٩٥٦ م .

المُسُوح : جمع مِسْح بكسر الميم وسكون السين : وهو ثوب من الشعر غليظ ، ويقال له : البلاس ، ويجمع المسح على أمساح أيضاً .

الأنطاع : مفردها نطع (عـلى وزن عنب وعقل وعلم وعمل) : بساط من الجلد .

الحبرات : مفردها حبرة (بفتح الحاء والباء) وهي ما كان من البرود مخططاً ، وهو ثوب من قطن أو كتان كان يصنع باليمن ، ومُلاءة من الحرير ، يقال : بُرْدٌ حَبَرٌ على الوصف وبردُ حَبَرةٍ على الإضافة.

الأنماط : واحدها نمط ، بفتح النون والميم ، وهو ضرب من البسط ، وثوب من صوف ملون له خَمْل رقيق يطرح على الهودج .

المطارف : مفردها مِطْرَف أو مُطْرف : رداء أو ثوب من خز ، مربع ذو أعلام :

الديباج : ثوب سداه ولحمته حرير .

الكرار : مفرده كر بفتح الكاف : جنس من الثياب ، وبالضم : الكساء .

النمارق : مفردها نُمْرُقة ، وهي : الوسادة ، وقيل : البساط ، وقيل : الثوب .

القز : الإبريسم أو ضرب منه ، وهو حرير طبيعي من دود القز .

القيلان : نسج غليظ .

هذه الأشياء مما كانت الكعبة تكسى به ، حتى انتهى الأمر في الكسوة التي تصنع بمكـة حرسها الله في عهد الملك خالد بن عبد العزيز إلى أن تكون من الحرير الطبيعي .

ولم يكن للكسوة لون خاص ، ولا نسيج خاص ، بل كانت مـن

نسيج أو جلد من أي لون كان حتى كساها الخليفة العباسي الناصر لدين الله الديباج الأسود – وكان السواد شعار العباسيين – وتوفي الناصر سنة ٦٢٢ وصار لون الكسوة من بعده أسود .

وللكعبة كسوتان : إحداهما من ظاهرها ، ولونها السواد ، وأما الثانية فهي من داخلها ، ولم تكن سوداء ، بل ذات ألوان غير السواد كالأخضر والأحمر .

كلمة موجزة
عن المصنع الجديد

مصنع الكسوة الحديث يقع بمدخل مكة المكرمة ليكون استهلال القادم إليها مشاهدة صورة الكعبة المشرفة أول ما يشهد وهو يتخذ طريقه إلى الكعبة نفسها .

ويشغل المصنع من الأرض مساحة قدرها مئة ألف متر مربع ، ويحوي أبهاء فسيحة ، بعضها لآلات النسج والحياكة اليدوية ، وبعضها للآلات الحديثة ، وبعضها لحزام الكعبة وستارة بابها ، إلى أبهاء أخرى للصباغة ، ومستودعات ومخازن ، وغرف الموظفين .

والفارق بين المصنع السابق والحديث أن المصنع الذي أسسه الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٦ كان قوامه على اليد الصناع ، فالآلات والأنوال كانت يدوية ، أما الحديث فيشمل هذه الآلات والأنوال ، ويزيد عليها شموله على أحدث آلات النسج والحياكة

فالمصنع الحديث يحوي قسمين : القسم اليدوي ، وهـــو الذي يتولى حياكـة الكسوة الداخلية للكعبة ، وستارة بابها ، والحزام ، والتطريز ، ونسج خيوط الفضة المطلية بماء الذهب ، إلى غير ذلك مما تتطلبه الكسوة.

أما القسم الآلي فيحوي « مكنات » تحوك الثوب كما تصنع السجاد .

وفي القسم الآلي مكنة خاصة لحياكة الثوب، وفي طاقتها نسجه في شهر، وفي قدرتها إتمامه في نصف شهر .

وبعد هذا يحوي المصنع هذه الأقسام :

١ ـ قسم النسج اليدوي ، وهو الذي يتم فيه نسج الكسوة مع احتوائه على الكتابة التي تنسج مع خيوط الكسوة نفسها حتى تكون جزءاً منها .

٢ ـ قسم الحزام وستارة الباب ، وهو أدق الأقسام وأكثرها تعقيداً، فعمل الحزام يمر بمراحل ، أولاها : ضبط مساحة الحزام طولا وعرضاً ضبطاً محكماً ، ثم تبدأ المراحل الأخرى كالكتابة ، ثم إبرازها بالقطن الذي تقوم اليد الماهرة الصناع بلفه بالخيط ثم بالحرير ، ثم بعد ذلك تقوم اليد الماهرة نفسها بلف خيوط الفضة المطلية بالذهب ، وعملية التطريز والزخرف واللف تقتضي مع المهارة والبراعة اليقظة التي تجعل الإبرة تنفذ في دقة بالغة وفي إحكام ومهارة حتى يكون العمل آية في الاتقان .

وعمل حزام الكعبة وستارة بابها يستغرق أحد عشر شهراً .

أما الكسوة نفسها ففي الوسع الانتهاء منها خلال بضعة شهور إذا كان عملها يتم بالآلات اليدوية ، فإذا أريد صنعها خلال أسابيع فإن في وسع المكنة الخاصة انجاز صنعها خلال شهر أو أقل .

٣ ـ وهناك قسم النسج الآلي الذي يحوي ـ الآن ـ أربع مكنات، إحداهن مكنة « الجاكارد » الخاصة بنسج الكسوة الظاهرة ، وفي وسعها نسج الثوب كله خلال أسابيع .

أما المكنات الثلاث الأخرى فهي خاصة بصناعة السجاد والبسط ،

فوزارة الحج والأوقاف مكلفة بفرش المساجد . ولهذا أقامت هذا القسم لإنتاج ما تحتاج إليه المساجد من البسط والسجاد ، وقد انتجت منهما ما يعد من النوع الممتاز .

٤ ــ قسم الصباغة ، وهو يتولى صبغ الحرير ، وقد برع عماله براعة في الصبغ الذي يبقي ثابتاً لا يحول خلال سنة ، مع أن الكسوة تتعرض لشمس مكة وللرياح والحر والبرد .

٥ ــ قسم الصيانة ، وهو يضم فئات متخصصة لصيانة كل ما يستعمل في الأقسام الأخرى .

ويوزع العاملون على هذه الأقسام حسب خبراتهم وتخصصهم .

والكسوة الكاملة ــ تتكون من ٥٤ قطعة ، طول كل قطعة ١٤ م وعرضها ٩٥ سنتمتر ، ومساحة الكسوة الكاملة ٢٦٥٠ متراً مربعاً .

ومحيط حزام الكسوة ٤٥ متراً ، وعرضه ٩٥ سنتمتراً ، ويتألف من ١٦ قطعة .

وتتألف ستارة باب الكعبة من أربع قطع متصل بعضهن ببعض ، طولهن سبعة أمتار ونصف متر ، وعرضها أربعة أمتار .

وفي الحزام والستارة آيات قرآنية مكتوبة بخيوط الفضة المطلية بالذهب، وبارزة وكل كتابات الكسوة والحزام والستارة بخط الثلث الرائع من خط الفنان الخطاط والرسام الشيخ عبد الرحيم بخاري .

والحرير الذي تحتاج إليه الكسوة يبلغ وزنه ٦٧٠ كيلو من الحرير الطبيعي الأبيض ، ويتولى قسم الصباغة صبغه بمواد تزن ٧٢٠ كيلو ، أما ما يحتاج إليه حزام الكعبة وستارة بابها من خيوط الفضة المطلية بالذهب فيبلغ وزنه الصافي ١٢٠ كيلو .

ويبلغ عدد عمال المصنع مع مديره وموظفيه حوالى المئتين ، ويشرف على المصنع بكل من فيه وما فيه الوزير نفسه ثم وكيل الوزارة لشؤون الأوقاف .

والحق ، إن هذا المصنع مفخرة لبلادنا السعودية بعامة ولوزارة الحج والأوقاف بخاصة ، فهو أحـــدث مصنع لصناعة الكسوة ، وارتقى فن صناعتها إلى ذروة لم يبلغها من قبل أي مصنع سبقه .

وهذا بفضل الله ثم بفضل الملك خـــالد بن عبد العزيز ونائبه وولي عهده الأمين الأمير فهد بن عبد العزيز ثم وزير الحج والأوقاف الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع .

الفهرس

كتب للمؤلف

أ ـ كتب نفدت

١ ـ كتابى (مجموعة مقالات) طبع بمطبعة أم القرى بمكة المكرمة ـ حرسها الله ـ سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٤ م) .

٢ ـ محمد بن عبد الوهاب

الطبعة الأولى ، القاهرة ، سنة ١٣٦٢ هـ (١٩٤٣ م) .

الطبعة الثانية ، القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) .

الطبعة الثالثة ، بيروت ، سنة ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) .

٣ ـ محمد بن عبد الوهاب (كتاب جديد غير السابق) .

الطبعة الأولى ، بيروت ، ٣ ي الحجة ١٣٩١ هـ (٨ يناير ١٩٧٢ م) .

الطبعة الثانية ، بيروت ، ٢٠ ذي الحجة ١٣٩١ (٤ فبراير ١٩٧٢ م) .

الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٠ محرم ١٣٩٢ هـ (٢٤ فبراير ١٩٧٢ م) .

الطبعة الرابعة ، بيروت ، ٥ رجب ١٣٩٢ هـ (٤ أغسطس ١٩٧٢ م) .

٤ ـ محمد بن عبد الوهاب (باللغة الأردية ، ترجمة العلامة الشيخ محمد صادق خليل) .

الطبعة الأولى ـ لاهور (باكستان) ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) .

٥ ـ الهوى والشباب (ديوان شعر)

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) .

٦ ـ الخرج والشرائع ، سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) .

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) .

٧ ـ أريد أن أرى الله (مجموعة قصص) .

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) .

٨ – المقالات .
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) .
٩ – الهجرة (مسرحية)
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) .
الطبعة الثانية (ضمن مجموعة بحوث تحت عنوان الهجرة) دمشق ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .
١٠ – صقر الجزيرة ، ٣ أجزاء .
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٦ م) .
الطبعة الثانية – جدة ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) .
الطبعة الثانية (ثلاثة أجزاء في مجلد واحد) جدة ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) .
١١ – البيان (نقد أدبي)
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٦٩ هـ (١٩٤٩ م) .
١٢ – الزنابق الحمر (مسرحية لطاغور ، مترجمة عن البنغالية)
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٧١ هـ (١٩٥١ م) .
١٣ – المقدمة (دراسة لمعجم صحاح الامام الجوهري)
الطبعة الأولى (كتبت مقدمة لمعجم « تهذيب الصحاح للزنجاني) القاهرة ، سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) .
الطبعة الثانية – القاهرة ، سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) .
١٤ – قطرة من يراع
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) .
١٥ – الصحاح ومدارس المعجمات العربية
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م) .
الطبعة الثانية (صدرت مع معجم الصحاح للجوهري تحت عنوان « مقدمة الصحاح » في جزء مستقل) القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .
الطبعة الثالثة – بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) .
١٦ – مقصورة ابن دريد (بحث تاريخي أدبي)
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) .
١٧ – الإسلام والشيوعية
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٦ م) .
الطبعة الثانية (مزيدة ومنقحة) بيروت ، سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م) .

١٨ – حرب الأكاذيب

الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .

الطبعة الثانية ، نشرت بجريدة « عكاظ » الطائف ، سنة ١٣٨٠ هـ . (١٩٦٠ م) .

الطبعة الثالثة ، نشرت في الطبعة الثانية من كتاب « الاسلام والشيوعية » بيروت ، سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م) .

١٩ – الفصحى والعامية

الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .

٢٠ – عشرون يوماً في الصين الوطنية

الطبعة الأولى – تايبيه (الصين الوطنية) سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) .

٢١ – الشريعة لا القانون

الطبعة الأولى – جدة ، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) .

٢٢ – الاسلام طريقنا الى الحياة

الطبعة الأولى – جدة ، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) .

٢٣ – آراء في اللغة

الطبعة الأولى – جدة ، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) .

٢٤ – كلام في الأدب

الطبعة الأولى – جدة ، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) .

٢٥ – المفتش (مسرحية لنقولا جوجول)

الطبعة الأولى – دمشق ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) .

٢٦ – الزحف على لغة القرآن

الطبعة الأولى – بيروت ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٦ م) .

٢٧ – الاسلام خاتم الأديان

الطبعة الأولى – بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) .

٢٨ – إنسانية الاسلام

الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) .

٢٩ – اليهودية والصهيونية

الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م) .

٣٠ – صقر الجزيرة ٧ أجزاء (وهو غير الكتاب السابق) .

الطبعة الأولى – بيروت ، سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م)

٣١ – ابن سعود وقضية فلسطين
الطبعة الأولى – بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) .
٣٢ – الشيوعية وليدة الصهيونية
الطبعة الأولى – بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) .
٣٣ – الماسونية
الطبعة الأولى – بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) .
٣٤ – عروبة فلسطين والقدس أصيلة منذ عشرات الآلاف من السنين ، والهيكل لم يكن مقدساً عند سليمان واليهود .
الطبعة الأولى – بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) .
٣٥ – حجة النبي صلى الله عليه وسلم
الطبعة الأولى – دمشق ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .
٣٦ – مؤامرة الصهيونية على العالم
الطبعة الأولى – بيروت ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .
٣٧ – بروتوكولات صهيون (مترجم)
الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .

ب – كتب محققة نفدت

٣٨ – تهذيب الصحاح (معجم لغوي ، تأليف الامام الزنجاني) ٣ أجزاء بالاشتراك مع الاستاذ عبد السلام هارون
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) .
٣٩ – مقدمة تهذيب اللغة ، للإمام الأزهري
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) .
٤٠ – ليس في كلام العرب ، للإمام ابن خالويه
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) .
٤١ – آداب المتعلمين ورسائل أخرى في التربية الاسلامية ، لابن خلدون وغيره
الطبعة الأولى – القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) .
الطبعة الثانية – بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) .
٤٢ – الصحاح ، للامام الجوهري ٧ أجزاء (منها المقدمة)
الطبعة الأولى – القاهرة سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .

ج – كتب مترجمة للمؤلف ، طبعت حديثاً

١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م

٤٣ – محمد بن عبد الوهاب ، باللغة الانجليزية ، ، ترجمة الدكتور راشد البراوي
الطبعة الأولى – دمشق ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .

٤٤ – محمد بن عبد الوهاب ، باللغة الأردية ، ترجمة الشيخ محمد خليل صادق
الطبعة الثانية – دمشق ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .

٤٥ – إنسانية الاسلام ، باللغة الانجليزية
الطبعة الاولى – بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

د – كتب صدرت حديثاً

١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م

٤٦ – الهجرة
الطبعة الأولى – دمشق ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .

٤٧ – الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم
الطبعة الأولى – بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

٤٨ – أحكام الحج والعمرة من حجة النبي وعمراته
الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

٤٩ – الحجاب والسفور
الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

٥٠ – وفاء الفقه الاسلامي واللغة العربية بحاجات هذا العصر وكل عصر
الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م)

٥١ – محاربة الفصحى
الطبعة الأولى – بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

هـ – كتب أعيد طبعها

١ – حجة النبي صلى الله عليه وسلم

الطبعة الثانية – دمشق ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .

٢ – صقر الجزيرة ٧ أجزاء

الطبعة الثانية – بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

٣ – محمد بن عبد الوهاب

الطبعة الخامسة ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

الطبعة السادسة ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

الطبعة السابعة ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

و – كتب تنتظر الطبع

١ – المكتبات

٢ – فيصل

٣ – مئة كلمة

٤ – المسيحية والمسيح

٥ – الديانة اليهودية (ديانة موسى)

٦ – ديانات الهند

٧ – ديانات مصر

٨ – ديانات فارس

٩ – ديانات الصين واليابان

١٠ – ديانات التوحيد

١١ – ديانات الشرق الاوسط

١٢ – ديانات افريقية

١٣ – لا أومن بالاشتراكية لأني أومن بالاسلام

١٤ – مع الكتب والمؤلفين

١٥ – الأسرة

١٦ – نقد كتاب « كشف الظنون »

١٧ – مذكرات لارا

١٨ – قال بيدبا

١٩ – خمس دقائق قبل الفطور

٢٠ – وراء القضبان

٢١ – ورود من كلام

٢٢ – العقاد

٢٣ – مسلمة في سيبريا

٢٤ – مع الملوك والرؤساء .

٢٥ – الادب الضاحك .

٢٦ – الرحلات .

٢٧ – عائشة أم المؤمنين .

٢٨ – ويلك آمن (نقد لبعض آراء الشيخ ناصر الدين الألباني) .

٢٩ – في اللغة .

٣٠ – جحا يستقبل نفسه (مجموعة قصص) .

ز – كتب محققة للطبع

٣١ – شرح مقصورة ابن دريد ، لابن هشام اللخمي .

٣٢ – الأزمنة ، لقطرب .

٣٣ – ما اتفق لفظه واختلف معناه ، لأبي العميثل .

٣٤ – كشف الظنون ، لحاجي خليفة .

٣٥ – مجموعة المعاني (مختارات شعرية) طبعة الجوائب .

هــذا الكتاب

« الكعبة المشرفة بيت الله على ظهر هــذه الأرض ، وهو أول بيت وضعه الرب الكريم لعباده المؤمنين ، يحيطون بـه في طوافهم ليل نهار ، ويعبدون الله بين يديه ، حتى إذا أكرم الله البشرية برسوله محمد عليــه أفضل الصلاة والسلام وجعله خاتم رسله ، والدين الذي بعثه به خاتم الأديان حتى يكون بنو البشر إخوة تجمعهم وحدة الدين ووحدة الاتجاه إلى قبلة واحدة هي هذه الكعبة .

ولا يمكن أن يكون الإنسان مؤمناً حتى يجعل الكعبة الغراء قبلته وإلا فقد الإيمان وخرج على الإسلام دين الإنسانية .

ومنذ أن قامت الكعبة على وجه الأرض وهي موضع الإجلال والاحترام والتقديس من الناس ، ولم تفقد قط كل هذه المعاني في جميع عصورها حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن بعض آيات هذه المعاني كسوة الكعبة التي عني بها الناس حتى جاء الإسلام فكانت العناية أجل وأعظم » .

الثمن ثلاثون ريالاً سعودياً أو ما يعادلها